

مظاهر الحياة العامة في المدينة المنورة من خلال رحلة بوركهارت (Burckhardt) (١٨١٤ - ١٨١٥)

د. محمد عبد الله القدحاتي

قسم التاريخ - كلية التربية للبنات - جامعة الملك فيصل - حفر الباطن

ملخص الدراسة :

بدأت الرحلات الأوربية إلى البلاد العربية منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وكان في طليعتها رحلة لودفيكو دي فارتيمما (Lodvica Thema) التي بدأها سنة 1503 م. ثم توالى الرحلات عبر القرون التالية. وكانت دوافع من قام بتلك الرحلات مختلفة. فمن الرحالة من قام برحلته بتكليف من جهة أوربية مسؤولة، سواء كانت أهدافها علمية أم استعمارية أم مزيجاً من هذه وتلك. ولقد جاءت كتابات أولئك الرحالة مختلفة من حيث الجودة والضعف، ومن حيث الدقة وعدمها، ومن حيث الحياد والتحيز، وذلك وفقاً لمؤهلات الكاتب الذاتية ودوافع كتابته. وكان جوهان لويس بوركهارت (Johan Lewis Burckhardt) من أبرز الرحالة الأوربيين إلى البلاد العربية، وأكثرهم - إلى حد ما - دقة وإنصافاً.

ليس هذا فحسب، بل إن كتب الرحالة سجلت ما أهملته كتب التاريخ العام، حيث التفت هؤلاء الرحالة إلى الجوانب الحضارية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. كما سجلوا ما لفت أنظارهم من الأمور غير المألوفة لديهم من عادات الشعوب وطقوسها وطرز معيشتها

وتعد رحلة بوركهارت شأن غيرها من الرحلات من المصادر المهمة لدراسة تاريخ البلاد العربية لما تضيفه من أبعاد مختلفة لحياة تلك الفترات من تاريخنا التي لم يقدر لها أن تدون من قبل أهالي البلاد. فقد كانت الكتابات المحلية نادرة وشحيحة في أخبارها التي غالباً ما تركز على الأخبار السياسية. لذا فإن كتابات الرحالة تبقى مصدراً لا غنى عنه لدراسة التاريخ الحضاري لهذه البلاد. ورغم أن بوركهارت لم يتجاوز في رحلته الحجاز، لكن هذا لا يعني أن معلوماته كانت مقتصرة على تلك المنطقة بل تجاوزتها إلى المدن والأقاليم الأخرى في شبه الجزيرة العربية معتمداً في تدوينها على شهود العيان.

لقد قدم بوركهارت وصفاً مفصلاً لمظاهر الحياة العامة في الحجاز، معتمداً المشاهدة والمعينة والزيارة. فأعطى معلومات مفصلة ودقيقة عن المدن، وخاصة: مكة المكرمة، المدينة المنورة، جدة.

قامت منهجيته على تقديم معلومات عامة عن المدينة المنورة وتضاريسها، ثم الحديث بالتفصيل عن بعض مظاهر الحياة فيها. ووصف المسجد النبوي. كما وصف الشوارع والدروب والأحياء والحارات وموقعها بالنسبة لقلب المدينة المنورة، وتحدث عن المياه ومصادرها والبنية التحتية لإيصالها إلى السكان. وتحدث عن معالم النشاط الاقتصادي من: تجارة وزراعة وصناعة، متحدثاً بروح ناقدة لحالة التراجع فيها، مبيناً الأسباب وراء ذلك.

Aspects of The Public Life In Madina Munawarah (1815-Through Burckhardt Trip (1814

Dr . Mohammad AbdUllah ALqadahat
King faisal University

Abstract

The European explorers have made a number of explorations to the Arabian land .They have started since the beginning of the 16_th century. Lodvica, whose expeditions began in 1503, was the pioneer of these trips. He had different motives for carrying them out. These expedition were prepared by the European principals, either for scientific or imperialistic purpose, or for both.

The writings of these adventures were variant according to reliability/ irreliability,accuracy/ inaccuracy,objectively/ subjectivity, and the writers personal qualifications and there motives of writing,Burckhardt was the most trusted. Because of his accuracy and objective .

Burckhairts trips as well as the others were classified as important sources shedding light on the Arabian history; they recorded the dominant ideologies of that period,which it wasn't inscribed by the Arabs: the local writing were rare and insufficient in reface to the political news. Consequently, these records are indispensable to study the history of those people. These books the explorers ones have also set down what the general history neglected: The explorers were concerned with the different fields of civilization such as :social economic, and cultural. They also inscribed the unfamiliar matters of the Arabs :customs, living standards. Although Burckhartdt had only reached al_hejas, well trusted people provided him with variety of information about the others cities, towns, religions,suburbans.

Burckhartdt introduced a very detailed description about public life in al_hejaz. He depended on viewing scrutiny, and visiting throughout his trips to mecca,madina,and gadda .He not only described the two holy mosques, the pilgrimage rituals,but he gave a comment to streets, suburbans...and their positions to the city center as well . He also gave due respect to the sources of water, the infrastructure, the economic activates of trade, agriculture,and industry. He stated these issues the spirit of objective critic in order to reflect the main causes of corruption.

توطئة

إن الحديث عن الرحلة هو حديث عن فن قديم في التراث العربي الإسلامي، وعن أوسع مجالات المعرفة وأكثرها خصوبة وثراءً وانفتاحاً. فنصّ الرحلة حقل منفتح على أصناف متعددة من المعارف، ينهل منه الفقيه والأديب والمؤرخ وعالم الاجتماع. وهو في النهاية وجه من وجوه التراث الذي يعكس بصدق حركية المجتمع العربي ونمط تفكيره وأسلوب حياته وعلاقاته، وأنماط الإنتاج فيه وعناصر الصراع والتلاقي والتطور التي تتحكم في مساره، ونوعية الثقافة السائدة فيه.

والرحلة، وإن كانت وصفاً جغرافياً، بحيث يجتهد الرحالة في وصف المسالك وكل ما يمر به من الوديان والجبال والسهول، والمعالم الطبيعية والتاريخية والعمرانية التي يقف عندها، فهي تتطرق إلى قضايا تتصل بالتاريخ والفكر واللغة والسياسة والدين، مما يوسع مجال الاستفادة من نص الرحلة، بوصفه حقلاً معرفياً منفتحاً على مجالات متعددة^(١).

إن الجهود التي بذلت للتعريف بالرحالة والرحلات لجزيرة العرب تغني الدراسة عند الحديث عنها وعن رجالها^(٢). في الوقت نفسه إن التفصيل عن أهداف الرحالة ما هو إلا إعادة وتكرار، فقد درست مثل هذه القضايا دراسة معمقة من قبل علماء ومختصين، وغالباً ما تصدر مثل هذه القضايا غالبية كتب الرحلات والدراسات المنشورة حولها^(٣).

تتبع أهمية كتب الرحالة عامة والأوربية على وجه الخصوص فيما تضيفه من أبعاد مختلفة لحياة تلك الفترات من تاريخنا التي لم يقدر لها أن تدون من قبل أهالي البلاد. فقد كانت الكتابات المحلية

١- عبد الخالق أحمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله الدرعي، منشور ضمن بحوث الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢١ هـ، ج ١، ص ١٧٥.

٢- انظر في ذلك: نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨٦ م، ص ١٦١ - ١٧٠، ودراسة حمد الجاسر في تقديمه لكتاب جاكلين بيرين « اكتشاف جزيرة الحرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم »، تعريب فديري قلعجي، الرياض: منشورات دار الفاخرة، (د. ت) ص ٥-١٦، عواطف محمد نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدران من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢ هـ، ص ٢٩-٦٧.

٣- انظر حول ذلك إضافة للدراستين السابقتين: جمال زكريا، الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز، منشور ضمن بحوث دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض: جامعة الرياض (الملك سعود) ١٣٩٧ هـ، ص ٩-٢١، روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ترجمة عبد الله نصيف، الرياض: (د م)، ١٤٠٩ هـ، عبد الله العبد الجبار، كتابات الرحالة الغربيون مصدران لتاريخ شبه الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد ١، سنة ٢٧، ١٤٢٢ هـ، أسعد الفارس، الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، أهدافهم وغاياتهم، وكذلك محمد الشيباني، أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية. وكلا البحثين منشور ضمن « الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٠ هـ، ج ١، ص ٥١٥ - ٦٠٢.

نادرة وشحيحة في أخبارها التي تركز على الأخبار السياسية. أما الرحالة فإن كتاباتهم - مع ما فيها من محاذير - تبقى مصدراً لا غنى عنه لدراسة تاريخ هذه البلاد وذلك للأسباب التالية:
أولاً - قدوم غالبية الرحالة إلى المنطقة في أوقات ساد فيها التراجع الثقافي، ولذلك لم يدون معظم تاريخها.

ثانياً - جاء هؤلاء الرحالة من ثقافات مختلفة، ومعظمهم من العلماء، لذا فإن كتاباتهم في معظمها تتسم بالنضج العلمي.

ثالثاً - اشتملت كتاباتهم على موضوعات اجتماعية واقتصادية، غالباً ما أهملتها الكتابات المحلية في حال توفرها.

رابعاً - ينظر هؤلاء الرحالة إلى مجتمعاتنا من زاوية مختلفة، لذا فهم يتمكنون من رصد ظواهر وملحوظات ربما ينظر إليها غيرهم من أهل البلاد على أنها أمور عادية لا تستحق الرصد^(٤).

التعريف بالرحالة بوركهارت (Johan Lewis Burckhardt) وأهميته وقيل الخوض في صلب الدراسة لا بد من التعريف بالرحالة بوركهارت ورحلته إلى الشرق.

ولد جوهان لويس بوركهارت (Johan Lewis Burckhardt) في مدينة لوزان بسويسرا عام ١٧٨٤م. كان والده عقيداً في الجيش السويسري، لكنه اضطر إلى مغادرة سويسرا إلى ألمانيا بعد الغزو الفرنسي لبلادها سنة ١٧٩٦م^(٥). درس بوركهارت في جامعات لايبزيغ، وجوتتمين في ألمانيا، وبعد أن أكمل دراسته، سافر إلى إنجلترا حيث التقى بالسيد جوزيف بانكس عضو الجمعية الإفريقية التي كانت تتبنى عدة بعثات إلى النيجر، عرض بوركهارت خدماته على بانكس للوصول إلى تمبكتو^(٦). قبلت الجمعية عرضه، وتعاقدت معه على أن يعمل لحسابها.

بعد حصوله على الموافقة من السيد بانكس، التحق بوركهارت بجامعة كمبردج عام ١٨٠٨م؛ لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وغيرها من العلوم التي يمكن أن تساعد في رحلته. في الوقت نفسه أخذ يُعد نفسه على تحمل مشاق الرحلة، فأخذ بممارسة الرياضات الشاقة كالمشي مسافات طويلة في الشمس

٤- عبد الله المطوع، الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الإحساء، ضمن بحوث الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ج ١، ص ٢٥٠.

٥- Burckhardt John Lewes Rolf stucky ١١٢ ضمن بحوث الرحلات إلى الجزيرة العربية، منشورات

الدارة، ١٤٢٢١هـ/٢٠٠١، ج ٢، ص ١١٣

٦- تمبكتو؛ مدينة تجارية في وسط مالي، وكانت من أغنى المدن التجارية في أفريقيا، ومركزاً للتعليم الإسلامي بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر. الموسوعة العربية العالمية، ج ٧، ص ١٧٨.

مكشوف الرأس، يفترش الأرض، ولا يأكل إلا الخضار، ولا يشرب إلا الماء.

بعد أن أكمل بوركهات استعداداته للرحلة، سافر إلى مالطة^(٧) منتحلاً شخصية طبيب هندي، ومنها إلى حلب حيث عاش فيها مدة سنتين بشخصية شيخ شامي يدعى " الشيخ عبد الله الشامي "، اعتكف خلالها على تعلم العربية وتعاليم الإسلام. وقام برحلات إلى البادية، حرص خلالها على إظهار تودده للبدو، فلبس ملابسهم، وشاركهم طعامهم، كما حرص على مشاركتهم مناسباتهم، حتى أضحى محل ثقمتهم. كان من جملة ما استفاده من هذه الرحلات تعلم اللهجات البدوية، كما استعان بالبدو في إرشاده إلى الأماكن الأثرية، التي توجت باكتشافه مدينة البتراء^(٨).

في شباط سنة (١٢٢٧هـ / ١٨١٢ م) بدأ بوركهات يستعد للمرحلة الثانية من رحلته إلى النيجر. عبّر بوركهات سوريا إلى مصر ليسافر من هناك مع إحدى القوافل إلى غرب أفريقيا. لكنه فوجئ أن القافلة التي سيرافقها لن تغادر قبل حزيران، لذا قرر أن يستطلع حوض النيل على أمل أن يعثر على طريق تتجه غرباً إلى بلاد النوبة. استطاع بوركهات أن يحصل على خطابات من محمد علي باشا^(٩)؛ لتأمين سلامته وتسهيل مهمته. توجه بوركهات جنوباً عبر النيل واستطاع أن يقطع أكثر من ٢٠٠ ميل جنوباً من أسوان، لكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك^(١٠)، فقرر التوجه إلى شبه الجزيرة العربية. عبر البحر الأحمر إلى جدة ضمن قافلة حج مؤلفة من الحجاج النوبيين والسودانيين. وبمجرد وصوله إلى جدة أصيب بالمalaria التي كادت أن تفتك بحياته.

بعد أداء فريضة الحج، توجه بوركهات إلى المدينة المنورة. استغرقت الرحلة خمسة عشر يوماً. وكانت رحلة متعبة قطع خلالها حوالي ثلاثمائة ميل دون استراحة حقيقية. وبقي في المدينة ثلاثة أشهر، منها ثمانية أسابيع في فراش المرض^(١١).

اقتصرت زيارته على ومكة المكرمة إضافة إلى جدة. كما زار الطائف لقضاء فترة نقاهة من المرض،

٧- مالطة: جزيرة بالقرب من وسط البحر المتوسط، على نحو ٩٥ كم من جزيرة صقلية. الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٢، ص ١١٣.

٨- P114 Burckhardt John Lewes stucky.

٩- فقد قابله في القاهرة أكثر من مرة. بوركهات، رحلات، ص ١٧.

١٠- سمير عطا الله، قافلة الحبر، الرياض، دار الساقى، ١٩٩٤، ص ٥٨-٩.

١١- عطا الله، قافلة الحبر، ص ٦١.

وهناك قابل محمد علي باشا من جديد، حيث كان يستعد للحرب^(١٢) والقضاء على الدولة السعودية الأولى^(١٣).

بعد أن مكث بوركهارت في الحجاز مدة أحد عشر شهراً من (١٥ حزيران ١٨١٤ إلى ٢٥ أيار ١٨١٥م) قضى الشهور الثلاثة الأخيرة في المدينة المنورة ، غادر إلى القاهرة، وهناك انشغل بمراجعة مذكراته ومشاهداته التي دونها خلال رحلاته، تمهيداً لإرسالها إلى الجمعية الإفريقية. وكان في الوقت نفسه يستعد لرحلته الرئيسية التي جاء من أجلها، إلى بلاد النيجر، لكنه أصيب بالطاعون، ووافاه أجله في القاهرة في تشرين الأول من عام (١٢٣٣هـ / ١٨١٧ م).

كان بوركهارت قد دون مذكراته ومشاهداته في بلاد العرب^(١٤) في أربعة مجلدات:

١ - رحلات في بلاد الشام. (Travels in Syria)

٢ - رحلات في بلاد النوبة (Travels In Nubia)

٣ - رحلات في شبه الجزيرة العربية. (Travels In Arabia)

٤ - ملاحظات عن البدو الوهابيين^(١٥). (Notes on the Bedouins and Wahaby)

١٢- كانت الدولة العثمانية حريصة على استرجاع سيادتها على الحرمين الشريفين، حتى تستعيد هيبتها في العالم الإسلامي. فقد كان من جملة ألقاب السلطان العثماني «حامي الحرمين». لذا فهي لا يمكن أن تسمح لقوة فتية (الدولة السعودية) أن تهدد زعامة السلطان الدينية. لم تجد الدولة العثمانية بدا من الاستعانة عام ١٢٢٢-١٨٠٧ بواليتها على مصر محمد علي للقيام بهذه المهمة. وقد وجد محمد علي أن الفرصة سانحة تمكنه من الحصول على مكانة بين الدول، مستغلاً ظروف الدولة العثمانية. فأرسل حملة بقيادة ابنه طوسون باشا في أواخر عام ١٢٢٦هـ/١٨١١، ووجهت الحملة بمقاومة شديدة من الدولة السعودية، مما اضطر محمد علي إلى إرسال حملة ثانية بقيادة ابنه إبراهيم باشا عام ١٢٣١هـ/١٨١٦. وبعد حروب كثيرة استطاعت قوات محمد علي عام ١٢٣٢هـ/١٨١٨ إسقاط الدولة السعودية الأولى. للمزيد، انظر: عثمان بن عبد الله ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ط٢، الرياض، مطبوعات وزارة المعارف، (د ت) ص ٢٠٧-٩، عبد الحميد البطريق، إبراهيم باشا في بلاد العرب، ص ١٣، عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٣٣-٢٤٥، مديحة درويش، تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، جدة: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، ص ٤٩-٥٢.

١٣- بوركهارت، رحلات، ص ١٦، ص ٧٦-٧٩.

١٤- وكانت الجمعية الأفريقية قد نشرتها في أربعة مجلدات في الفترة ١٨٢٩-١٨٣١.

.Burckhardt. P 116. John Lewes stucky

١٥- إن فسخة الوقت التي توفرت لبوركهارت مكنته ليس فقط من إعطاء أوصاف لحواضر الحجاز وعاداتها الاجتماعية فحسب، بل إلى جمع معلومات غنية عن مناطق أخرى من جزيرة العرب لم يتمكن من زيارتها مثل: نجد واليمن وشمال الجزيرة. وقد دون هذه الملاحظات في جزأين ملحقين لكتاب « رحلات في شبه الجزيرة العربية ». (نشر عبد الله العثيمين ما يتعلق بالسعوديين تحت عنوان: « مواد لتاريخ الوهابيين »، الرياض: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

وقبل استكمال الحديث عن بوركهارت ورحلته، هناك سؤال يثار حول حقيقة إسلامه. والذي يمكن تأكيده في هذا الصدد أن معظم الرحالة، إن لم يكونوا كلهم، عندما كانوا يرغبون ارتياد شبه الجزيرة العربية وخاصة المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة، يضطرون إلى انتحال شخصيات إسلامية ويتسمون بأسماء عربية، ويتعودون بعبادات المسلمين وطباعهم، وذلك حتى لا يتعرضون للمتابع. لذا لا يمكن الحسم بشكل قاطع إن كان مسلماً حقيقة أم أنه ادعى الإسلام. فقد كان على إمام كبير بالدين الإسلامي، وبالرغم من وجود أخطاء في معلوماته، فهو لم يتعرض في كتابه إلى الطعن في العقيدة الإسلامية، أو نقد للرسول - صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك فقد كان شديد النقد لسلوك المسلمين، ويبيد مشاعر باردة تجاه المقدسات الإسلامية، فمشاعره نحوها أقرب إلى مشاعر الباحث والآثاري منها إلى مشاعر المؤمن المتعبد. ومما يزيد في صعوبة حسم هذه القضية، أن بوركهارت عندما أحس بدنو أجله، أوصى أن يدفن في مقابر المسلمين، فكان له ما أراد^(١٦).

إن المذكرات التي دونها بوركهارت بعد عودته إلى القاهرة هي نتيجة لمشاهداته وزياراته للحجاز التي استغرقت خمسة عشر شهراً، اعتمد فيها أساساً على المشاهدة والملاحظة لما وجدته في المدن والأصقاع التي ارتادها. واعتمد على الرواة وشهود العيان في معلوماته عن المناطق التي لم يزرها. أما المعلومات التاريخية عن المدينة المنورة ومكة المكرمة فقد اعتمد فيها على بعض المصادر التاريخية^(١٧).

تمتاز كتابات بوركهارت بالوصف الدقيق للملامح الحياة العامة إضافة للتحليل والنقد، فقد وصف المدن من حيث الموقع والتركيب السكاني وعادات أهلها. كما وصف المشاعر المقدسة في المدينة المنورة. وتعد كتابات بوركهارت أيضاً وثيقة تاريخية هامة، فقد قدر له أن يكون شاهد عيان لانحسار النفوذ السعودي عن الحجاز ومجيء قوات محمد علي، فتحدث عن هذه المرحلة الانتقالية وآثارها على الملامح العامة للحياة في الحجاز.

١٦- اعتمدت الدراسة في عرض بعض جوانب حياة بوركهارت على: نجيب العقيقي، المستشرقون، مصر: دار المعارف، ١٩٨٠م، ج ٢، ص ٥٢-٢، كتاب بوركهارت كمصدر من تاريخي واقتصادي للدولة السعودية الأولى، منشور في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة، الرياض: جامعة الملك سعود (الرياض)، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٤٥٢-٤٦١، مقدمة المحققان لكتاب جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه الجزيرة العربية، ترجمة عبد العزيز الهلابي وعبد الرحمن الشيخ، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ٥-١١، الشيباني، أهداف الرحالة الغربيين، ج ١، ص ٥٢، أسعد الفارس، رحلة الغرب في ديار العرب، الكويت (د. م.) ١٩٩٧م، ص ٧٣، أسعد الفارس، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ج ١، ص ٥٨٦-٧ وكذلك: Robin Bidwell, Travels In Arabia, p 51

١٧- أشار إليها في فاتحة كتابه الرحلات، ص ١٢-٤

وهناك ملاحظات لا بد من إيرادها قبل الخوض بتفاصيل الدراسة، تتمثل ب: أن بوركهارت شأن غيره من الرحالة الغربيين، كان هدفه من الترحال جمع المعلومات الجغرافية ودراسة عادات الشعوب وأحوالهم المعيشية والسياسية ليستفيد منها الدارسون والمتخصصون في بلاده فيما بعد. فهو يقول: " لأن المدينة مجهولة تماما بالنسبة للأوروبيين، فقد تحوي - يقصد رحلته - ملاحظاتي بعض المعلومات المرضية"^(١٨).

لكن بوركهارت - القادم من أوروبا - يُصرّ في كتاباته ووصفه للمناطق التي زارها على أنها بلاد متخلفة تعاني من الفقر والجوع. محاولاً في هذا تطبيق المعايير والمقاييس عينها التي يحكم من خلالها على مستوى الحضارة الأوروبية، دون الاعتبار للظروف السياسية التي كانت تعاني منها البلاد والتي أوصلتها إلى مثل هذه الحالة من التراجع. فلم يستطع في كتاباته التخلص من نظرية تفوق الأوربي الذي جاء إلى الشرق مبشراً وناشراً لمبادئ حضارته، لذا فإنه عندما يعقد مقارناته بين الشعوب التي زارها بالشعوب الأوروبية تكون لصالح الأوربي^(١٩).

وملاحظة أخرى يجب الإشارة إليها حول كتاباته، أنه كان يجنح في حالات كثيرة إلى التعميم في الأحكام، رغم أنه لم يقض الوقت الكافي في المدينة المنورة حتى يستطيع أن يقف على كل شيء، ومثال على ذلك حديثه عن الثقافة والعلوم في المدينة. وبعد هذه المقدمة، فإن هذه الدراسة " مظاهر الحياة العامة في المدينة المنورة من خلال رحلة بوركهارت " ستركز على دراسة المظاهر التالية:

أولاً: المظاهر العمرانية " خطط المدينة المنورة "

ثانياً: المظاهر الاجتماعية

ثالثاً: المظاهر الثقافية

رابعاً: المظاهر الاقتصادية

خامساً: الوظائف الإدارية

أولاً: المظاهر العمرانية (خطط المدينة المنورة)

تعد الخريطة التي رسمها بوركهارت للمدينة المنورة أول خريطة رسمت لها. وقد بين عليها معالم

١٨- رحلات، ص ٢٩٥.

١٩- انظر مثالا على ذلك: الرحلات، ص ٢٤٥ - ٦.

المدينة المنورة. وأهم هذه المعالم: السور الذي بناه السلطان سليمان، وكذلك السور الخارجي الذي أقيم بالجهة الغربية الجنوبية^(٢٠). ويلاحظ من الخريطة ومن الوصف الذي قدمه أن الامتداد الخارجي للمدينة مفصول عن جسم المدينة المنورة القديمة بساحة واسعة " المناخة"^(٢١) من الجهة الغربية ودرب الجنائز من الجهة الجنوبية^(٢٢).

والمدينة المنورة القديمة تشكل شكلا بيضويا^(٢٣)، يبلغ محيطها حوالي ألفين وثمانمئة خطوة^(٢٤)، يحيط بها سور حجري يتراوح ارتفاعه بين خمسة وثلاثين وأربعين قدما^(٢٥)، وعلى جوانبه نحو ثلاثين برج حراسة^(٢٦).

ويتحدث بوركهارت عن المراحل التي تمّ فيها بناء السور منذ سنة ٣٦٠ هـ، معتمداً في ذلك - وإن لم يصرح في ذلك - على السهمودي^(٢٧). ويضيف أن بناء السور الذي شاهده هو من بناء السلطان العثماني سليمان القانوني في أواخر القرن السادس عشر الميلادي^(٢٨).

- ٢٠- انظر الخريطة: بوركهارت، رحلات، ص ٢٩٥، وهي ملحقة في خاتمة الدراسة). وكذلك مصطفى لمي، المدينة المنورة المنورة، تطورها العمراني، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص ١٩.
- ٢١- كانت هذه المساحة من الأرض قد اشتراها بعض ملوك آل عثمان ووقفها ومنع البناء بها وجعلها محطاً للحجاج ومناخاً لإبلهم، فسُمّي لذلك بالمناخة. ثم أطلقت المناخة فيما بعد على ما بين السورين من فضاء، وأصبحت كبلدة مستقلة. رفعت، مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١٣-٤.
- ٢٢- لمي، المدينة المنورة، ص ١٩.
- ٢٣- انظر ملحق الخريطة التي رسمها بوركهارت. يلاحظ أن الخريطة التي رسمها إبراهيم رفعت هي عينها خريطة بوركهارت. انظر: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين: (د م)، (د ت)، ج ١، ص ٤١٢.
- ٢٤- الخطوة: المسافة بين القدمين. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد مرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٧، ج ٢، ص ١٦٨٠.
- ٢٥- أعطانا المؤرخ جلال الدين الرومي (ت ٩٥٩هـ/١٥٥١) صورة تقارب ما ذكره بوركهارت عن أعمال السلطان سليمان القانوني بالمدينة المنورة وتعمير سورها في بداية العصر العثماني، حيث أشار إلى أن طول السور ٢٦٢٤م، وارتفاعه يتراوح بين ١٠م و١٢م. للمزيد، انظر: جلال الدين محمد بن خضر الرومي، التحفة اللطيفة في عمارة المسجد وسور المدينة (نشره حمد الجاسر مع رسائل أخرى تحت عنوان رسائل في تاريخ المدينة، الرياض، ١٩٧٢، ص ٨٥-٩٢).
- ٢٦- رحلات، ص ٢٩٨. يقول إبراهيم رفعت في كتابه مرآة الحرمين: أما السور الداخلي فجدده السلطان سليمان بن السلطان سليم سنة ٩٢٩هـ، وجعله على أساس السور القديم... وأذرع محيطه ٣٠٧٢ ذراع معماري (الذراع يساوي ٧٥ سم). أي ما يعادل ٢٣٠٦م. انظر مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١١.
- ٢٧- رحلات، ص ٢٩٨. وقارن ذلك بما أورده علي بن أحمد السهمودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١م، ج ٢، ص ٧٦٦-٨.
- ٢٨- رحلات، ص ٢٩٨-٩. وقارن ذلك بما أورده عبد الملك بن حسين العصامي، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، القاهرة: المكتبة السلفية، (د ت)، ج ٤، ص ٨١.

كما يتضح أنه منذ العصر العثماني أقام الحكام الجدد مساكنهم في الضاحية الغربية على الطريق الرئيسي الذي يخترق الضواحي " العنبرية " (٢٩).

وكان موقع القلعة الاستراتيجي في مفصل المدينة المنورة مسيطرا على مدخلها الشمالي، وعلى مسافة ليست بعيدة عن منزل الحاكم التركي (٣٠).

ولفت انتباهه طبيعة البناء في المدينة المنورة، فمنازلها مبنية من الحجارة الداكنة، معظمها تتكون من طابقين. وقد أثرت طبيعة البناء على إضاءة الشوارع الضيقة أصلاً والتي لا تتجاوز المترين، فتجدها معتمة حتى في النهار (٣١). يعلل بوركهات ذلك " بأن سكان الجزيرة العربية لا يتذوقون فن العمارة إلا قليلاً، وحتى زعماءهم وشيوخهم لا يقيمون إلا في مبان لا تمثل إلا ما هو ضروري للسكن والإقامة" (٣٢).

يُصرح بوركهات أنه لم يكن لديه الوقت الكافي لدراسة خطط المدينة المنورة ووصف جميع أحيائها، ولعل ذلك بسبب المرض الذي أصابه وجعله فترة طويلة رهين الفراش (٣٣). لذا اقتصر في وصفه للمشهور منها. فقسّم المدينة المنورة إلى ثلاثة أقسام:

١ (المنطقة الواقعة بين الشارعين الرئيسيين - البلاط وشارع السوق الكبير - وتشمل هذه المنطقة أحياء: الساحة، كومة حشيفة، البلاط، سقيفة شيخي، زقاق الطوال، زقاق الذرة، وزقاق البقر (٣٤).

٢ (المنطقة الواقعة شمال شارع البلاط، الممتدة من المسجد الحرام إلى باب الجمعة. وتشمل أحياء: الحماطة، زقاق الحبس، زقاق عنقيني، زقاق البدور، زقاق السماهيدي، حارة الميضاة، حارة

٢٩- رحلات، ص ٢٩٨.

٣٠- لمي، المدينة المنورة المنورة، ص ٢٠.

٣١- رحلات، ص ٢٩٩. قارن ذلك بما أوردته رفعت. حيث يصف مباني المدينة المنورة بقوله: «وبيوتها ضيقة غير منتظمة، أكثرها من غير رحاب مرتفعة البناء ذات طبقتين وثلاث أو أكثر». مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤٠٧. ويضيف رفعت: «وحارات المدينة المنورة ضيقة لا يزيد عرضها عن المترين». مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١٠.

٣٢- رحلات، ص ٣٠١. هذا الرأي فيه كثير من المغالاة، فمن العمارة موجود في المدينة، ولعل أشهر مثال على ذلك المسجد النبوي. كما أن بوركهات يناقض نفسه، فهو في مكان آخر يشير إلى أن بيوت أهل المدينة جيدة التأثير. رحلات، ص ٣٥٣. لكن إذا قصد عدم البهجة والتزيق، فإن هذا عائد إلى تعاليم الإسلام التي تدعو إلى البساطة في كل شيء: اللبس، والطعام، والسكن.

٣٣- بقول بوركهات عن سبب النقص في معلوماته: «كنت حبيس مرقدي بسبب المرض طوال ثمانية أسابيع. وملاحظات التي ذكرتها عن المدينة ليست كافية، ولو كانت صحيحة لأضفت إليها». رحلات، ص ٢٩٥.

٣٤- يشير رفعت إلى أن هذا القسم من الحارات يقع شمال المسجد النبوي. مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١٠.

الشرشورة، وحارة الأغوات التي يعيش بها أغوات المسجد النبوي^(٣٥).

٣) المنطقة الممتدة من باب الجمعة على طول الأجزاء الشمالية للمدينة حتى الباب المصري وشارع السوق الكبير. ومن أحيائها: ذروان، الصالحية، حارة أحمد حيدر، حارة بني حسين، حارة البيزوغ، حارة السقيفة، حارة الرصاص، حارة سيدي مالك، حارة القماشين، زقاق ياهو، زقاق الزرندي، زقاق الكبريت، زقاق الحجامين^(٣٦).

ويحيط بالمدينة المنورة من جانبيها: الغربي والجنوبي ضواح تقوق مساحاتها مساحة المدينة المنورة نفسها. يفصل بينها وبين المدينة المنورة مساحة مكشوفة تعرف بالمناخة، وهو اسم يعني مكان إناخة الإبل، وهو مزدحم بالجمال والبدو وخاصة في موسم الحج، تتأثرت وبشكل عشوائي خلالها الخيام والسقائف، التي استخدمت كحوانيت لبيع المؤن^(٣٧).

والضواحي في طبيعتها أقرب للقرى الزراعية من المدينة المنورة، فهي تتكون من أحواش، في كل حوش نحو ثلاثين أو أربعين عائلة، محاطة بأبنية منخفضة يفصل بعضها عن بعض المزارع والحدائق. وتشكل الأحواش في نسقتها الاجتماعي وحدات اجتماعية مستقلة، فكل حوش له كيانه الخاص الذي فرضته طبيعته الجغرافية والديمغرافية، يغلّق بابه في كل مساء على من فيه من سكانه وحيواناتهم وضروريات معاشهم. وهذه الضواحي هي موطن الطبقات الفقيرة والبدو، إضافة للعاملين بالزراعة^(٣٨).

تضم الضواحي المحيطة بالمدينة المنورة الحارات: العنبرية، الواجبة، السيح، أبو عيسى، الحميدية، الشحرية، الخيبرية، الجفر. تتنظم خلال هذه الحارات ممرات عريضة تسمح بمرور الجمال بمختلف الجهات^(٣٩).

أما الشوارع، ففي المدينة المنورة شارعان رئيسيان هما:

أ - شارع السوق الكبير. يبدأ من الباب المصري وينتهي عند المسجد النبوي. وقد كان لموقعه باعتباره

٣٥- تقع هذه الحارات جنوب المسجد النبوي. رفعت، مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١٠.

٣٦- رحلات، ص ٢٠٠.

٣٧- رحلات، ص ٢٠١.

٣٨- رحلات، ص ٢٠٢.

٣٩- رحلات، ص ٢٠٢.

نقطة العبور الرئيسية إلى المسجد النبوي، أن أضحى طرفا الطريق سوفا تجاريا تتنظم فيه الحوانيت التجارية، التي اعتمدت في الغالب الزوار.

ب - الشارع الثاني يسمى شارع البلاط. يمتد من المسجد النبوي إلى الباب الشامي، إلا أن هذا الشارع رغم أهميته، أقل ازدهارا من الشارع الرئيسي^(٤٠).

مساجد المدينة المنورة

يظهر جليا أن بوركهات في حديثه عن مساجد المدينة المنورة ناقل معلوماته عن بعض تواريخ المدينة المنورة السالفة وخاصة السمهودي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م). حيث يقول: " وفي زمن المؤلف كان يوجد خمسة عشر مسجدا في المدينة المنورة والمناطق المجاورة لها، وكلها الآن أضحت خربة، وقدم لنا المؤلف أسماء وتواريخ سبعة وثلاثين منها كانت قائمة في عصور الإسلام الأولى " ^(٤١).

أسهب بوركهات الحديث والوصف للمسجد النبوي من حيث موقعه ومساحته، وطراز بنائه، وزخرفته، وأبوابه^(٤٢). وعند حديثه عن الروضة الشريفة، لفت انتباهه بساطة المكان مع أنه " من أقدس مقدسات المسلمين ". يعلق على ذلك - وكأنه ينتقد المسلمين على تقصيرهم تجاه رعاية وزخرفة الروضة الشريفة، مقارنة بما يبذله رجال الدين في رعاية أضرحة القديسين: " فليس ثمة وجه للمقارنة بين قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضريح قديس غير ذي شأن في أية كنيسة كاثوليكية في أوروبا " ^(٤٣).

أما المساجد الأخرى، فيوجد في المناخة مسجدان: مسجد علي بن أبي طالب، وقد تعرض المسجد في العصور السالفة للخراب، إلى أن أعيد بناؤه عام ٨٧٦ هـ. وكانت تقام فيه صلاة الجمعة، بسبب بعد الضواحي عن المسجد النبوي. ومسجد الفتح^(٤٤). ويسميه بوركهات كذلك بمسجد عمر. ومن

٤٠- رحلات، ص ٢٩٩.

٤١- رحلات، ص ٢٠٢. وقارن هذا بما أورده السمهودي، وفاء الوفا، ج ٢، ص ٧٧٩-٨٨٢. يشير بوركهات إلى أن هذه المساجد عمها الخراب أثناء زيارته.

٤٢- رحلات، ص ٣٠٥-٣١٧.

٤٣- رحلات، ص ٢١٢. يبدو أن بوركهات قد غاب عن ذهنه تحريم الإسلام بناء القبور وزخرفتها، حتى لو كان ذلك قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤٤- قال الهيثمي: وسمي بذلك لقوله صلى الله عليه وسلم لما صلى ودعا: أبشروا بفتح الله ونصره. حاشية الهيثمي على الإيضاح، ص ٤٥٨. ويؤيد هذا السمهودي رغم أنه أورد رأيا آخر في سبب التسمية بأنه عائد لنزول سورة الفتح، ج ٢، ص ٨٢٥-٧. للمزيد انظر: محمد الياس عبد الغني، المساجد الأثرية في المدينة المنورة المنورة، ط ١، المدينة المنورة المنورة، مطابع الرشيد، ص ١٢٨-٩.

المساجد أيضاً: مسجد أبو بكر، ومسجد الذباب^(٤٥)، ومسجد قباء^(٤٦).

توفير المياه للمدينة

تعتمد المدينة المنورة في توفير المياه بشكل أساسي على قناة سطحية تجلب المياه بواسطتها من قباء^(٤٧) جنوب المدينة المنورة. أعيد ترميمها في عهد السلطان سليمان القانوني. ولأجل توفير المياه لأحياء منطقة المناخة، أقيم خزان مغطى بالحجارة على مستوى القناة.

إضافة إلى مياه الآبار ومياه القناة، فإن المدينة المنورة في فصل الشتاء تأتيها المياه من سيل المدينة المنورة - سيل بطحان^(٤٨) - الذي يجري من الشمال إلى الجنوب عبر الضواحي. وتكثر السيول المشابهة في المناطق المجاورة، إذ تملأ هذه السيول كثيراً من البرك والأراضي المنخفضة، حيث يبقى الماء فيها حتى شهور الصيف^(٤٩).

يشير بوركهارت إلى أنه رغم توفر المياه بشكل كبير، إلا أنها غير صالحة للشرب، فغير المعتادين عليها وخاصة من الزوّار يصابون بعسر الهضم. أما المياه العذبة التي يُقبل على استخدامها غالبية السكان فهي مياه الآبار المنتشرة في البساتين. وقد أدى توفر الماء إلى قلة استخدام الأحواض والخزانات في البيوت^(٥٠).

ثانياً: المظاهر الاجتماعية

من الموضوعات الاجتماعية التي تعرض لها بوركهارت في رحلاته:

٤٥- رحلات، ص ٢٠٢-٢٠٣. يقال له مسجد ذباب لوقوعه على جبل ذباب. عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة المنورة، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ص ١٢٨. ويقول الفيروزآبادي: ذباب كغراب وكتاب لغتان، جبل بالمدينة المنورة. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المغان المطاية في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار النمامة، (د . ت) ، ص ١٤٦، السمهودي ، وفاة الوفا ، ج ٣ ، ص ٨٤٧ .

٤٦- رحلات، ص ٢٢٨-٩.

٤٧- يقصد بوركهارت بذلك العين الزرقاء التي ظلت تمد المدينة بالمياه العذبة حتى عهد الملك سعود. أحمد ياسين الخياري، تاريخ المدينة المنورة قديماً وحديثاً، الرياض: منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩، ص ٣٠٥. ووصفها أكثر من رحالة زار المدينة ووصف مياهها بالعذبة. منهم البتوني الذي زار المدينة عام ١٢٢٧هـ/١٩٠٩ حيث قال: «وأهل المدينة المنورة يشربون من آبار كثيرة، ولكن ماءها الذي عليه مدار سقياها يأتي إليها من قناة ممتدة من عين غربي مسجد قباء، وهذه العين تسمى العين الزرقاء». الرحلة الحجازية، ص ٢٥٧.

٤٨- يسير وادي بطحان بين قباء والمدينة المنورة شمالاً، حيث يتصل مع وادي راناء ووادي القناة عند مجتمع الأسياح. وتبدو أودية المدينة المنورة منحدره من الجنوب إلى الشمال، تسيل في انحدارها مياه الأمطار، فتجعل منها مزارع وبساتين. أحمد الشريف، مكة المكرمة والمدينة المنورة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٣، ص ٢٢٩.

٤٩- رحلات، ص ٣٠٤.

٥٠- رحلات، ص ٣٠٤.

عناصر السكان

معروف أن أهل المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة متنوعو الأصول والأعراق. فقد كان يفد إليهما المسلمون من كل أصقاع العالم الإسلامي من أجل تأدية فريضة الحج أو العمرة. لكن مع الأيام أضحت البلاد المقدسة محط أنظار المسلمين للاستقرار والعيش بها، حتى زاد عدد الوافدين عن عدد السكان الأصليين.

يتكون مجتمع المدينة المنورة من الفئات التالية :

١ - أهل المدينة المنورة الأصليين من بقايا الأوس والخزرج. لكنهم يشكلون فئة قليلة من سكان المدينة المنورة، فلم يبق منهم سوى عشر أسر، تستطيع إثبات نسبها من خلال أشجار نسب أو من خلال مَرويات مُوثَّقة. ويُعدون من طبقة العامة. يعيشون حياة فقيرة، معتمدين على العمل بالزراعة في بساتين وضواحي المدينة المنورة لتأمين ضروريات الحياة^(٥١).

٢ - الأشراف من نسل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. لم تكن المدينة المنورة موطنهم الأصلي، وإنما قدم أجدادهم من مكة المكرمة خلال الحروب التي شنوها لامتلاك المدينة المنورة. وغالبيتهم من علماء الدين، وليس منهم من طبقة العسكريين إلا القليل. ومن بين هؤلاء الأشراف العسكريين قبيلة تعرف ببني حسين التي ترجع في أصولها إلى الإمام الحسين شقيق الحسن التي كانت سابقاً تتمتع بنفوذ كبير^(٥٢) في المدينة المنورة^(٥٣). ويقيم هؤلاء الأشراف في حارة خاصة بهم^(٥٤)، تعرف بحارة بني حسين^(٥٥).

٥١- رحلات، ص ٢٤١-٢. يؤكد ذلك بعد حوالي ٨٠ سنة رفعت بقوله: «... بينهم من ذرية الأنصار ما لا يعدو أصابع اليد». مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤٣٩.

٥٢- استطاع أحد أحفاد طاهر بن مسلم الحسيني عام ٣٦٠هـ إعلان قيام حكم الأشراف الحسينيين في المدينة المنورة، وعرفت هذه الأسرة فيما بعد بأسرة آل مهنا. وكان هؤلاء الأشراف على المذهب السني. للمزيد : انظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٧١، ج ٤، ص ٩٩، سليمان مالكي، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٩٨٣م، ص ٥١، عائشة عبد الله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، ص ٢٢-٥.

٥٣- قام الخياري باستقصاء أسماء حكام المدينة المنورة من الأشراف الحسينيين حتى عام ١٣٤٤هـ. للمزيد، انظر: تاريخ المدينة، ص ٢٨٣-٩.

٥٤- رحلات، ص ٣٤١.

٥٥- رحلات، ص ٣٠٠.

- ٣- بقايا الأسرة العباسية، ويسمون بالخليفة، أي أنهم من سلالة الخلفاء العباسيين^(٥٦).
- ٤- النخالة^(٥٧). الذين يعملون بالزراعة. ويطلق عليهم مصطلح النخالة^(٥٨). ويعني هذا اللفظ الأشخاص الذين يعيشون بين النخيل، دلالة على عملهم بزراعة ورعاية أشجار النخيل^(٥٩).
- ٥- البدو. ويستقرون في ضواحي المدينة المنورة. ورغم استقرارهم، إلا أنهم لم يندمجوا مع بقية السكان^(٦٠).
- ٦- فئة الهكارية (الزواج). وإن كانت هذه الفئة غير مستقرة نهائياً- شأن غيرها من الفئات - فقد كان هؤلاء يتجددون في كل موسم حج. والسبب في بقائهم لفترات طويلة، أنهم من الفقراء، يتخلفون عن قوافل الحج للعمل حتى يؤمنوا نفقات العودة إلى بلادهم^(٦١). يعيشون على أطراف المدينة المنورة في أكواخ خاصة.
- ٧- يشكل الوافدون الذين جاءوا للمجاورة معظم سكان المدينة المنورة^(٦٢). ويرجع أصل المجاورة^(٦٣) إلى أهمية المدينة المنورة الدينية في نفوس المسلمين. ولم تكن المجاورة محدودة بمدى معلومة، لذا فإنه مع الزمن تحولت إلى إقامة دائمة. وقد انعكس وجود هؤلاء المجاورين

٥٦- رحلات، ص ٢٤٢.

٥٧- أشار الأنصاري إلى كتاب ألف عن النخالة بعنوان «أصول النخالة وفروعهم» لخير الدين الياسي المدني. عبد الرحمن الأنصاري، تحفة المحبين في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس، ص ٤٨٠. والكتاب مفقود.

٥٨- يشير رفعت إلى أن أصولهم من الأعاجم. مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤٤٠.

٥٩- رحلات، ص ٢٤٢.

٦٠- رحلات، ص ٢٤٤.

٦١- رحلات، ص ٢٥٢.

٦٢- رحلات، ص ٢٤٢.

٦٣- يرجع أصل المجاورة إلى ما جاء في الأثر من فضل مكة المكرمة والإقامة بها، فقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله عندما خرج مهاجراً من مكة المكرمة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت». محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٩٧هـ) الجامع الصحيح، تحقيق إبراهيم عطوة، القاهرة: مطبعة مصطفى الباب الحلبي، ١٩٦٥م، ج ٥، ص ٧٢٢. لم تنتشر المجاورة كثيراً في بداية العهد الإسلامي، لانشغال المسلمين بالجهاد، إلا أن ما حل بالعالم الإسلامي من خلافات ونزاعات انتهت بالاجتياح المغولي لبلاد الإسلام عام ٦٥٦هـ قد دفعت مثل هذه الظروف بالمسلمين إلى الحاجة إلى الرجوع إلى أصول الدين وترك المذاهب الدنيوية. وقد شكل المجاورون في مكة والمدينة منذ العصر المملوكي شريحة من شرائح المجتمع، شجعت على المضي قدماً في المجاورة في العصر العثماني. نوره معجب الحامد، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦-١٢٢٦هـ / ١٨٤٠-١٩٠٨)، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥، ص ٢٨٦.

على التكوين الاجتماعي للمجتمع المدني^(٦٤).

ويرجع غالبية الوافدين في أصولهم: إلى اليمن، وحضرموت، وسوريا، ومصر، وبلاد المغرب وتركيا. ويضاف إليهم جماعات من الهنود يعملون في العطاراة. وهؤلاء يتميزون عن غيرهم بالتمسك بألبستهم وعاداتهم، ويعيشون بحي خاص بهم أيضاً^(٦٥).

وإذا كانت المجاورة سببا رئيسيا للاستقرار في المدينة المنورة، فهناك فئة كبيرة استقرت بالمدينة المنورة للاستفادة من الامتيازات التي كانت تتمتع بها الأماكن المقدسة: كالإعفاء من الضرائب، والإعفاء من الخدمة العسكرية^(٦٦). فلا يمر عام إلا وينضم إليهم وافدون جدد، أتوا، ليستقروا^(٦٧).

ثم لم يلبث هؤلاء الوافدون أن اندمجوا بنسيج المجتمع المدني، وأصبحوا عناصر فاعلة تشارك بإيجابية في كل وجوه الحياة. وقد انعكس هذا التنوع على المجتمع المدني حتى في ملابسهم، فكل فئة من الوافدين حافظت على عاداتها وملابسها " لا يتمسك أهل المدينة المنورة بلباس خاص يميزهم عن غيرهم "^(٦٨).

لم يتوقف تأثير الوافدين على مظاهر الحياة العامة فحسب، بل تجاوزها إلى اللغة " فهي ليست نقية، وهي في ذلك كلغة أهل مكة المكرمة، فهي أقرب للغة أهل مصر، كما أن السوريين..... احتفظوا بمسحة من لهجتهم. ومن الشائع أن تسمع أهل البلاد يتحدثون التركية، أو على الأقل ينثرون بين كلامهم قليلا من الكلمات التركية "^(٦٩).

أما الرقيق والجواري فهم قلة في المدينة المنورة إذا ما قورنوا بمكة المكرمة، ولا يوجد إلا عدد قليل من العبيد والأحباش. لذا يستعين أعيان المدينة المنورة وأثريائها بنساء المزارعين والضواحي للعمل في بيوتهم^(٧٠).

٦٤- كان معظم هؤلاء من الحجاج الذين قدموا لأداء فريضة الحج، لكنهم آثروا البقاء في الحجاز وخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومع الأيام اختلطوا بالناس والتحموا بالمجتمع، وأصبحوا يشكلون جزءا من هيكلها الاجتماعي. طرفة العبيكان، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط ١، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦، ص ٢٢٤. وعن العوامل الرئيسية للهجرة إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، انظر: محمود السرياني، البوتقة المكية وأثرها في صهر السكان، مجلة الدارة، عدد ٤، مجلد ٢٢، ١٤٢٦هـ، ج ٢، ص ١٩٥.

٦٥- رحلات، ص ٢٤٢.

٦٦- رحلات، ص ٢٢٨.

٦٧- رحلات، ص ٢٤٢.

٦٨- رحلات، ص ٢٤٢.

٦٩- رحلات، ص ٢٥٨.

٧٠- رحلات، ص ٢٥٤.

وبالمجمل، فقد قدر بوركهارت عدد سكان المدينة المنورة بين ستة عشر وعشرين ألفاً، عشرة منهم يعيشون بالمدينة المنورة والباقي بالضواحي^(٧١).

العادات

عند حديثه عن عادات أهل المدينة المنورة، فإن بوركهارت يصرح بأنه لم تتح له الفرصة الكافية للتعرف على عادات أهل المدينة المنورة. والسبب وراء ذلك قصر الفترة الزمنية التي قضاها في المدينة المنورة، والتي لم تتجاوز ثلاثة أشهر، قضى منها ثمانية أسابيع في فراش المرض. لذا فقد كانت معلوماته عن عادات أهل المدينة المنورة شحيحة. ورغم ذلك فإنها تعطي صورة ولو غير كاملة لأوضاع المجتمع المدني. من العادات التي لفتت انتباه الرحالة بوركهارت، حرص أهل المدينة المنورة على زيارة جبل أحد، خاصة في فصل الربيع. ينصبون الخيام ويبيتون هناك أياماً. وكان جبل أحد أشبه "بمصحة طبيعية" للناقلين من الأمراض. حيث تذبج الذبائح إيفاءً بنذور كانوا قد نذروها إذا تماثلوا للشفاء^(٧٢). ومن عادات أهل المدينة المنورة أيضاً زيارات قبور أهليهم في المواسم، فيضعون سعف النخيل على الأضرحة^(٧٣).

وتنتشر عادة شرب التبغ والرجيلة والقهوة بين السكان "حتى تقايض الفاكهة بالبُن". كما أنهم مولعون بشرب الشاي شأن غيرهم من سكان الحجاز^(٧٤). وأكثر المقاهي منتشرة في سوق المناخة وعند الباب المصري، وهما سوقان للقوافل القادمة إلى المدينة المنورة^(٧٥). ومن العادات المنتشرة أيضاً بين سكان المدينة المنورة بجميع فئاتهم حملهم عصا طويلة وغليلة. لكنها تختلف من حيث الشكل والتزيق، فالأغنياء يحملون عصا لها رؤوس من الفضة، أما العامة فأنهم يثبتون برؤوسها المسامير، مما يجعلها سلاحاً يحميهم من الأخطار^(٧٦).

٧١- رحلات، ص ٣٦٥. يشير إلى ما يؤكد ذلك الرحالة بيرتون (Burton) فقد ذكر أن الدولة العثمانية قامت عام ١٨١٨ بإحصاء عدد سكان المدينة المنورة المنورة، حيث بلغ عدد سكانها ١٨ ألف نسمة. لمعي، المدينة المنورة المنورة، ص ٢١، نقلاً عن Burton, Personal Narrative, P. ٢٨٦.

٧٢- رحلات، ص ٢٢٨.

٧٣- رحلات، ص ٣٣٥. يشير صاحب مرآة الحرمين إلى مثل هذه العادة، حيث يخرج الرجال والنساء ليلتي الاثنين والخميس لزيارة القبور ومعهم الرياحين يضعونها على القبور. ج ٢، ص ٤٤٣.

٧٤- رحلات، ص ٣٥٤.

٧٥- رحلات، ص ٣٠١.

٧٦- رحلات، ص ٣٤٤. ولعل هذا يعكس حالة الأمن في المدينة.

ولفت انتباه بوركهارت مبالغة أهل المدينة المنورة في الجنائز وإظهار احترامهم للميت. إلا أنه يقول: إن المدينة المنورة هي البلد الوحيد من بلدان المشرق التي لا تتوح به النساء على الأموات^(٧٧). بل يُعتبر النواح من الأمور المخزية. يذكر بوركهارت مشاهداته لمثل ذلك، فيقول: " مات ربّ الأسرة في منزل يلي المنزل الذي كنت أسكنه، وكنت أستطيع سماع ما يجري. لقد حدثت الوفاة في منتصف الليل، فتحرك ابنه الوحيد بمشاعر طبيعية، مندفعاً في صراخ عال. وعندئذ سمعت استنكار أمه قائلة: " بالله عليك لا تصرخ، فيا له من أمر مخجل أن تصرخ، إنك تقضحنا أمام الجيران ". كما أن نساء المدينة المنورة على عكس نساء مصر لا يرتدين ثياب الحداد^(٧٨).

أدهشت بوركهارت روح التعاون والترابط بين أهل المدينة المنورة خلال مراسيم التشييع، وما رآه من المشاركة الجماعية في حمل الجنازة على الأكتاف حتى سماها " عادة وطنية ". فالنعش ينتقل انتقالاً غير منقطع من أكتاف إلى أكتاف حتى يستقر به المقام أخيراً بالقرب من المقبرة^(٧٩).

الخدمات الصحية والأمراض

تعد الصورة التي قدمها بوركهارت عن الأوضاع الصحية في المدينة قاتمة جداً. لكنها تظهر قدراته الطبية ومعرفته بالأمراض من خلال وصفه لطبيعتها وأسباب الإصابة بها. وهذا عائد إلى طبيعة دراسته في " جامعة كمبرج "، حيث كان من ضمن العلوم التي تلقاها الطب. كان لطبيعة التربة وارتفاع نسبة الملوحة في المياه والمستنقعات التي تكونها مياه الأمطار حول المدينة المنورة، إضافة للبخار المتصاعد من بساتين النخيل، دور في تلوث هواء المدينة المنورة. كما كان لنقص المرافق الصحية الأثر البالغ في تردي الحالة الصحية. فالمدينة المنورة ليس بها إلا حمام واحد بالقرب

٧٧- رحلات، ص ٣٥٤. يؤكد هذا رفعت بقوله: أن الميت إذا فاضت روحه لا يُرفع صوت ولا يشق جيب ولا تتوح نائحة، ولكن تبكي العين ويحزن القلب، ولا يقولون ما يغضب الربّ. مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤٤٢.

٧٨- يشر بوركهارت إلى خطأ وقع فيه غالب الرحالة بأنه ليس لأهل المشرق ملابس خاصة للحداد، فهو على الأقل قد رأى مثل هذه الملابس في مصر والشام. فالنساء يرتدين لباس الحداد، ولهن في مصر عادات في ذلك حيث يصبغن أيديهن بصبغة زرقاء ويختمرن بخمر سود، ومن ثم يسرن في إثر موكب الجنازة. رحلات، ص ٣٥٧.

٧٩- رحلات، ص ٣٥٧. ما رآه بوركهارت من مشاركة أهل المدينة المنورة في تشييع الجنائز عائد إلى مفاهيم دينية، وإن ذلك من واجبات المسلم، وليس مجرد مسألة شكلية كما يقول. روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: « من شهد الجنازة من بيتهما حتى يصلّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان. قيل يا رسول الله: وما القيراطان. قال: مثل الجبلين العظيمين ». وقد ورد هذا الحديث في كتب الصحاح أمثال: البخاري، مسلم، الترمذي. للمزيد انظر: محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز وبدوها، الرياض: مكتبة المعارف، ص ٨٨.

من المسجد النبوي، وكان هذا الحمام قد بني سنة ٩٧٣ هـ بناءً على أمر محمد باشا وزير السلطان سليمان القانوني^(٨٠).

انتشرت الأمراض بين السكان، وكانت أمراض الحميات أشهرها وأكثرها شيوعاً، إذ يعاني منها كثير من السكان، وقلما يفلت من مغبتها الوافدون الذين يمكثون فيها، خاصة في فصل الربيع. يشير بوركهارت إلى أن يحيى أفندي طبيب طوسون باشا - الذي أشرف على علاجه وقت مرضه - أعلمه أنه يتابع حالات ثمانين مريضاً بالحمى في وقت واحد^(٨١).

ومن الأمراض المنتشرة أيضاً: الصفراء واليرقان. لذا فإن الوفيات الناجمة عن مثل هذه الأمراض أكثر من غيرها من المدن^(٨٢).

وبسبب انتشار الأمراض في المدينة المنورة، فإن نسبة الوفيات بها أكثر من غيرها من المدن التي زارها في الشرق، فالمدينة المنورة تفقد في كل عام ما يزيد على ١٢٠٠ نسمة. وهذا الرقم كبير جداً إذا علمنا أن عدد سكان المدينة المنورة يتراوح بين ستة عشر وعشرين ألفاً، ولا يعوض هذا النقص إلا الوافدون^(٨٣).

الملابس

ثمة ملاحظتان أشار إليهما بوركهارت حول طبيعة ملابس أهل المدينة المنورة:

الأولى: أن أهل المدينة المنورة - على الأقل الرجال - ليس لهم لباس خاص بهم يميزهم عن غيرهم من أبناء المدن الأخرى. ولعل ذلك من تأثيرات الطبيعة الديمغرافية للمدينة، حيث تضم في نسيجها الاجتماعي شعوباً وعناصر مختلفة من السكان وخاصة الوافدون، والذين مع الزمن استقروا بالمدينة المنورة، محافظين على ما تبقى لديهم من تراث أوطانهم. ومع الأيام نلاحظ تأثر أهل المدينة

٨٠- رحلات، ص ٢٠٠. يذكر علي بن موسى الذي زار المدينة المنورة عام ١٢٠٢هـ/١٨٨٦ أن في المدينة المنورة حمامين. انظر: رسالة في وصف المدينة المنورة، نشرها حمد الجاسر ضمن (رسائل في تاريخ المدينة المنورة) الرياض، ١٩٧٢، ص ٨٢. وقد حدد رفعت مكانهما: الأول داخل المدينة قرب المسجد النبوي، والثاني في المناخة. مرآة الحرمين، ج ١، ص ٤١٤. يظهر أن الحمام الثاني أنشئ بعد زيارة بوركهارت.

٨١- رحلات، ص ٣٦٤.

٨٢- رحلات، ص ٣٦٤.

٨٣- رحلات، ص ٣٦٥. حتى المواليد، فإن عددهم لا يمكن أن يقارن بعدد الوفيات، فلو قلنا أن نسبة المواليد في العام ١٠٠/٢ فإن نسبة الزيادة تتراوح بين ٤٠٠-٥٠٠، هذا مع عدم الأخذ بنسبة الوفاة بينهم.

المنورة بغيرهم من العناصر الوافدة. لكن هناك فئة حافظت على اللباس العربي التقليدي " البَدَن "، وهم البدو^(٨٤).

الثانية: إسراف الأغنياء من أهل المدينة المنورة في النفقة عامة، واللباس خاصة. حيث إظهار التأنق والتباهي بملابسهم في المناسبات والأعياد. كما يظهر مثل هذا التأنق في أثاث بيوتهم^(٨٥).

من ملابس الرجال: البَدَن " عباءة ليس لها أكمام "، والجبّة. والبعض يلبس عباءة مخططة بلونين: الأبيض والبُنّي. وفي فصل الشتاء يرتدون الفرجيات^(٨٦) المجلوبة من اسطنبول^(٨٧). أما عامة الناس فإنهم يرتدون المعاطف^(٨٨) الطويلة ومن فوقها الجبة أو العباءة^(٨٩).

ومن ملابس الرأس: الطربوش الأحمر^(٩٠) الذي يلبسه الموظفون والأغوات. ويلبس أبناء طبقة العامة الطواقي البيضاء. ويلبس الأشراف على رؤوسهم العمامة البيضاء. وهم بذلك يخالفون عامة الأشراف في المشرق الذين يتميزون بلبس العمائم الخضراء^(٩١). ويتنعل غالبية السكان الصنادل^(٩٢).

أما ملابس النساء، فليس هناك كبير اختلاف عما تلبسه النساء بمكة المكرمة، فنساء طبقة العامة يرتدين معاطف زرقاء، بينما تلبس نساء الطبقات العليا الملاءات^(٩٣) الحريرية^(٩٤).

ولا يختلف لباس البدو المستقرين في الضواحي عما يرتديه بدو بادية الشام، فهم يلبسون الثوب

٨٤- رحلات، ص ٢٤٣. جاء في لسان العرب: البَدَن: الجبّة. أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ط ٢، اعنى بتصحيحه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧، ج ١، ص ٢٤٧.

٨٥- رحلات، ص ٢٤٢.

٨٦- الفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام. وغالبا ما يكون من الصوف. رضا، معجم متن اللغة، ج ٤، ص ٣٧٧.

٨٧- رحلات، ص ٢٤٣.

٨٨- المعطف: مثل مئزر وإزار. وسمي الرداء عطافا لوقوعه على عظمي الشخص، وهما ناحيتي عنقه. ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٦٩.

٨٩- رحلات، ص ٢٤٢.

٩٠- نوع من لباس الرأس. أول من استعمله الأتراك، ثم انتشر في مصر والشام. ظهر في القرن السابع عشر. محمد رضا، معجم متن اللغة، بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٥٩، ج ٣، ص ٥٨٢.

٩١- رحلات، ص ٢٤٤.

٩٢- رحلات، ص ٢٤٤.

٩٣- قطعة كبيرة من القماش، تكون منسوجة من القطن أو الحرير، تستر المرأة بها جسمها كله. محمد علي مغربي، ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز، جدة: دار تهامة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢، ص ١٠٦.

٩٤- رحلات، ص ٢٤٤.

والعباءة، ويغطون رؤوسهم بالكِسيَّة^(٩٥)، ويضعون الخناجر بأحزمة جلدية على الوسط^(٩٦).
أما ملابس الأغوات، فإنها تتكون من الشيلات^(٩٧) الكشميرية، والأثواب المصنوعة من الحرير
الهندي^(٩٨).

ويتميز شيخ الحرم بملابس خاصة به لا يلبسها غيره، تتكون من: عباءة رجبية، يلبسها فوق ثوب
مطرز من الحرير على نفس طراز العاصمة^(٩٩)، يتدلى من حزامه خنجر مرصع بالألماس، وغطاء
الرأس يسمى القاووق^(١٠٠).

الأطعمة

يشكل التمر المادة الغذائية الأساسية لغالبية السكان وخاصة الفقراء منهم. وهناك عدة طرق
لتقديمه، فالبعض يغليه مع الحليب أو الزبدة، وآخرون يمرسونه حتى يصير كالعجين بعد غليه بالماء ثم
يصبون عليه العسل. لذا يقول العرب "إن ربة البيت الناجحة تعش زوجها يومياً لمدة شهر بأطباق التمر
التي أعدت بطرائق مختلفة"^(١٠١).

ولسد حاجات المدينة المنورة من التمور طوال العام، تجلب التمور من عدة مناطق، منها: وادي الفرع
الذي يبعد عن المدينة المنورة مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام، وكذلك من رابغ، حيث يُجلب بسلام كبيرة،
يكون التمر فيها قد ضغط^(١٠٢).

ويشكل خبز الشعير الغذاء الأساسي للطبقات الفقيرة في المدينة المنورة^(١٠٣). والقلة من أهل المدينة
يمكنهم الحصول على السمن واللحوم^(١٠٤).

٩٥- نوع من البسة الرأس، تعرف الآن بالشماع.

٩٦- رحلات، ص ٢٤٤.

٩٧- رداء كالتيلسان. يوضع على المنكبين ويلف به الصدر. المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، استانبول، دار
الدعوة، (د ت)، ص ٥٠١.

٩٨- رحلات، ص ٣١٨.

٩٩- يقصد على شاكلة كبار الموظفين في العاصمة اسطنبول.

١٠٠- رحلات، ص ٢٥٣. وهو عبارة عن قلنسوة، يلف حولها قماش أبيض. وكان لكل فئة من رجال الدولة طراز خاص من القاويق. أحمد
سعيد السلطان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١٦٢.

١٠١- رحلات، ص ٢٣١.

١٠٢- رحلات، ص ٢٤٨.

١٠٣- رحلات، ص ٢٢٩.

١٠٤- رحلات، ص ٢٤٨.

الأعياد (١٠٥)

اقتصرت بوركهات حديثه على احتفال^(١٠٦) أهل المدينة المنورة بالمولد النبوي الذي يصادف الثاني عشر من ربيع الأول^(١٠٧). يحيي أهل المدينة ليلة المولد بالصلوات. وفي صباح اليوم التالي تتحول المدينة المنورة إلى مهرجان، تغلق الحوانيت ذلك اليوم، ويتأنق الناس في ملابسهم. ويجتمع العلماء وأعداد من الناس بزيتهم، حيث يشترع الوعاظ في استعراض مناقب الرسول - صلى الله عليه وسلم- وأحواله منذ مولده إلى وفاته. وبعد ذلك يوزع شراب الليمون أو العرقسوس^(١٠٨).

طبائع أهل المدينة المنورة

عندما يريد بوركهات أن يعقد مقارنات بين ما يراه في المدينة المنورة، فإن أقرب المدن للمقارنة مكة المكرمة. فأهل المدينة المنورة أقل مرحاً وحيويةً من أهل مكة المكرمة. لكن يظهر عليهم الكثير من الوقار والجِدِّ. كما أنهم أكثر تمسكاً بالدين من أهل مكة المكرمة، يظهرون الالتزام الصارم بالفرائض الدينية. ويضيف: "إن أهل المدينة المنورة يتمتعون باللباقة والذوق أكثر من أهل مكة المكرمة"^(١٠٩). والإسراف صفة غالبية على أهل المدينة المنورة رغم قلة الأثرياء فيها "حتى ليظهر أنهم أكثر ثراءً من أهل مكة المكرمة". ويشمل الإسراف كل مظاهر الحياة: كاللباس وأثاث البيوت، لكن الإسراف في الولائم والدعوات يكون أكثر^(١١٠).

وسائل الترفيه

الملاحظة التي ركز عليها بوركهات في أكثر من موضع هي افتقار المدينة المنورة للمنشآت العامة، التي انعكس عدم توفرها على جميع مناحي الحياة. فلعدم توفر وسائل الترفيه كالحدايق مثلاً، حرص أعيان المدينة المنورة على إنشاء حدائق صغيرة تلحق بمنازلهم تتوفر بها آبار المياه، يسقون بها تلك المزارع، ويملأون بواسطتها الأحواض الرخامية، حيث يقضي ملاك هذه المساكن وقت الظهيرة في فصل الصيف حول هذه الأحواض تحت سقائف معدة لهذه الغاية^(١١١).

١٠٥- انظر: بوركهات عن عيد الأضحى عند حديثه عن موسم الحج في مكة المكرمة. رحلات، ص ٢٤٨-٢٥٧.

١٠٦- لأن بوركهات زار المدينة المنورة بعد أداء فريضة الحج.

١٠٧- لقد أخطأ بوركهات عندما جعل الاحتفال بالمولد النبوي في ربيع الثاني. رحلات، ص ٣٥٥.

١٠٨- رحلات، ص ٣٥٥.

١٠٩- رحلات، ص ٣٥٤.

١١٠- رحلات، ص ٣١٩.

١١١- رحلات، ص ٣٠١.

وعامة أهل المدينة المنورة يقومون بزيارات (ترفيهية) إلى جبل أحد، ينصبون خيامهم، ويقضون هناك عدة أيام^(١١٢). وبعضهم يذهب للغاية نفسها إلى منطقة قباء^(١١٣).

ثالثاً: المظاهر الثقافية

تمثل انطباعاته عن الحركة الثقافية صورة مذهلة لحالة التراجع التي كانت تعانها المدينة المنورة^(١١٤). فبعد أن كانت أحد مراكز الثقافة الإسلامية الرئيسة في القرون الهجرية الأولى، تحولت بفعل التطورات السياسية التي حلت بالعالم الإسلامي إلى مركز هامشي من مراكز الحراك الثقافي الإسلامي. ويضيف: أعتقد أنه لا يوجد في العالم الإسلامي كله بلدة في سعة المدينة المنورة لا تعقد في مساجدها حلقات علم^(١١٥). ولقد بالغ بوركهارت أيضاً في عدم إقبال أهل المدينة وخاصة العرب على تلقي العلوم حيث يقول: " وخلال زيارتي للمسجد النبوي لم أر أبداً أي عربي من أهل البلد يدرس في أي مجال من مجالات المعرفة، إذ لم أر إلا قلة من الحجيج التركي يشرحون الكتب الدينية بلغتهم"^(١١٦). ويعبّر بوركهارت عن استغرابه لمثل هذا التراجع، مع توفر المرافق الأساسية للتعليم والتمثلة بوجود " كثير من المؤسسات الخيرية " الأوقاف " التي أوقفت خصيصاً لهذا الغرض ". ولا زال العلماء يحصلون على الرواتب من هذه الأوقاف دون أداء الواجب المنوط بهم"^(١١٧).

لكنه في الوقت نفسه حاول أن يخفف من الصورة القاتمة التي وصل إليها العلم في المدينة المنورة من

١١٢-رحلات، ص٢٢٨.

١١٣-رحلات، ص٢٣٥.

١١٤- تتحمل الدولة العثمانية المسؤولية الأكبر في تراجع الثقافة والعلوم في بلاد العرب عامة. فقد سيطرت على البلاد مستفيدة من ثرواته، دون أن تقدم لأبناء تلك البلاد ما يحتاجه من مرافق وخدمات عامة كالمدراس، لذا فإنه إن كان هناك ثقافة وتعليم في المدينة وغيرها من بلاد العرب، فإن ذلك قام بفضل مؤسسة الوقف التي ساهمت في تخفيف وطأة تناسي الدولة لواجباتها تجاه رعاياها. وإلى مثل ذلك يشير محمد السنوسي في رحلته، والذي زار المدينة عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢، حيث يقول: « لقد عجبت كل العجب من أمر العلم في الحجاز مع وجود فحول العلماء هناك. كلهم يقرئ العلوم الدينية احتساباً لربه، وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين، ولا من إدارة الأوقاف، بحيث إنه لا جراية على التدريس ولا للمدارس أصلاً مع صنف العلماء، وأن هذا أمر عجيب بالنظر إلى أمثال هذه الجهات التي هي منبت أصل الدين، وذلك من أعظم ما ينبغي للدولة أن تهتم بشأنه». محمد بن عثمان السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ج٢، ص٢٢٣.

١١٥-رحلات، ص٢٢٢. إن الفترة الزمنية التي قضاها في المدينة والتي لا تتجاوز ثلاثة أشهر لا يمكن أن تكفي لإصدار مثل هذه الأحكام على الحياة الثقافية فيها، خاصة إذا علمنا أنه قد زارها في موسم الحج، حيث يشغل الناس بتوفير ما يلزم لراحة الزائرين.

١١٦-رحلات، ص٢٢٢.

١١٧-رحلات، ص٢٢٤.

خلال الإشارة إلى وجود عدد من العلماء المتمكنين من علوم الشريعة، يفوقون أقرانهم من علماء مكة المكرمة. وهؤلاء العلماء تلقوا تعليمهم في مدارس مصر والشام^(١١٨).

وأشار إلى عدم رواج سوق الكتب في المدينة المنورة: "فالكُتب التي رأيتها معروضة للبيع كانت موجودة في بعض محال بيع الأقمشة بالتجزئة بالقرب من باب السلام"^(١١٩).

أما المكتبات العامة، فلم يُفصّل الحديث عنها، واكتفى بالقول: "فإن هذه المكتبات في جملتها أوقاف، مهداة لبعض المساجد من قبل مؤسسيها أو موقوفة على بعض الأسر، حتى لا يتمكن أحد من نقل هذه الكتب أو تحويل ملكيتها". لكنه تحدث عن وجود عدد من المكتبات الخاصة ببعض العلماء، فقد زار واحدة منها، وكانت تحوي ما يزيد عن ثلاثة آلاف مجلد^(١٢٠).

وكانت إشارات لمراكز التعليم سريعة ومقتضبة. من تلك المراكز: حلقات العلم التي كانت تعقد في أحد جوانب المسجد لتعليم الصبية مبادئ القرآن الكريم. أما المدارس، فلم يشر إلا إلى مدرستين هما: المدرسة الحميدية الواقعة في شارع البلاط، والمدرسة الأخرى لم يذكر اسمها، واكتفى بتحديد موقعها بالقرب من المسجد النبوي، وفيها كان يقيم شيخ الحرم^(١٢١).

ويظهر بوركهات شغفا بالبحث عن تاريخ أو مذكرات كتبها أحد علماء هذه الفترة، ويبدو أن محاولات بالبحث باءت بالفشل. ويختم حديثه عن الحياة العلمية: "لقد ظهر لي أن الأعمال الفكرية غير منتعشة إلا قليلاً في المدينة المنورة، مثلها في ذلك مثل المناطق الحجازية الأخرى، وإن العمل الوحيد، والهَمّ الشاغل للجميع، هو تحصيل النقود، وإنفاقها على مباحج الحياة"^(١٢٢).

١١٨- رحلات، ص ٣٥٧-٨.

١١٩- رحلات، ص ٣٥٨.

١٢٠- رحلات، ص ٣٥٨. وهذه الرواية تنقض حكم بوركهات على الحياة الثقافية في المدينة.

١٢١- رحلات، ص ٣١٧. يشير صاحب مرآة الحرمين الذي زار المدينة أكثر من مرة في الفترة بين ١٩٠١-١٩٠٨ أن في المدينة ١٨ مكتبة، ١٧ مدرسة تدرس فيها العلوم الأولية، ومكتبا راقيا، ١٢ مكتبا للصبيان، وعدد الطلبة فيها ٣٢٠، وعدد طلاب المكتب الراقي ٥٥. انظر: ج ١، ص ٤١٤.

١٢٢- رحلات، ص ٣٥٨.

رابعاً: المظاهر الاقتصادية

تناول من هذه المظاهر:

الحرف التي يمارسها أهل المدينة المنورة ومصادر الدخل

يأتي الدخل الأساسي للمدينة من عوائد المسجد النبوي، والمتمثلة بعوائد الأوقاف وما ترسله الدولة العثمانية، وكذلك من موسم الحج. كما أن كل السكان يحظون بهبات سنوية يطلق عليها الصّرة^(١٢٣). وأحياناً فإن هذه الأموال لا توزع على مستحقيها وخاصة من الفقراء، إلا إنها كانت تصل باستمرار. هذه الأموال عبارة عن هبات لا يؤدي أهل المدينة المنورة مقابلها عملاً. ويظهر أن مثل هذه الهبات كان لها آثار سلبية على السكان، أهمها أنها دفعتهم إلى الاعتماد عليها، والعزوف عن ممارسة العمل. لكن بوركهارت بالغ في وصف أثر هذه الصّرة على أنها العامل الرئيسي في استقرار سكانها " أنه بدون الصّرة سرعان ما تخلو المدينة المنورة من ملاك الأراضي والمزارعين"^(١٢٤).

ويعتمد بعض الفقراء على ما تقدمه الأوقاف المنتشرة في المدينة المنورة، بعد أن حُرّموا من الصّرة، التي صارت تنفق على جموع من الأشخاص الذين لا يستحقون، ويعيشون في حالة بطالة وخمول^(١٢٥). ولما كانت الأوقاف بمجملها موقوفة على العلم وطلابه، لذلك تدافع العاطلون والبطالون إلى طلب " قشور العلم " ظاهراً، والرغبة بما يوفره الوقف من المعاش حقيقة^(١٢٦).

أما العمل الحر في فهو شبه معدوم، والعاملون فيها هم من الواقيين. ويدل على فقر المدينة المنورة للمهن بأنه " لا يوجد بها سوى منجد واحد، وصانع أقفال واحد، ولا يصنع بها حتى الجرار البسيطة"^(١٢٧). وقد عانى السكان من ذلك، خاصة أن غالبية المهن كان يمارسها الحجاج، التي سرعان

١٢٣- الصّرة كلمة عربية، تعني لغة ما يُصرّ على الشيء، واصطلاحاً كيس من النقود. وأطلقت في المعاملات المالية بالدولة العثمانية على مبلغ خمسين ألف أفقيّه، كما استخدمت للدلالة على المبالغ المالية التي كانت ترسل سنوياً إلى المجاورين في الحرمين من الحكام والسادة والأعيان والعلماء والفقراء. سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١ هـ، ص ١٤٤. وكان أول بعث الصّرة بشكل منتظم السلطان محمد الأول العثماني عام ٨٤٢هـ/١٤٢١. وسميت بالصدقة الرومية. وكانت ترسل مع المحمل الشامي. وإرسال الصّرة لم يكن أمراً خاصاً بالدولة العثمانية فقط، وإنما كانت تقوم به بعض البلاد الإسلامية الأخرى كمصر والبلاد التونسية. الحامد، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز، ص ٢٢٨.

١٢٤- رحلات، ص ٣٤٩. وفي هذا مبالغة واضحة، فهو قد أشار إلى أن الصّرة لا توزع دائماً على الأهالي، ورغم ذلك فأصحاب الأراضي لم يغادروا أرضهم، فهو لم يدرك مدى ارتباط العربي بأرضه، ولا يغادرها مثل هكذا سبب.

١٢٥- رحلات، ص ٢٥٠.

١٢٦- رحلات، ص ٢٢٤.

١٢٧- رحلات، ص ٢٥٠.

ما تختفي بمغادرتهم إلى بلادهم، مما يضطر أهل المدينة المنورة إلى الاستعانة بالحرفيين من مدينة ينبع^(١٢٨).

يعمل بوركهارت السبب في نفور الناس العام عن العمل في مجال الحرف اليدوية في الحجاز إلى خمولهم وكسلهم وبغضهم لكل عمل يدوي، لكنه في الوقت نفسه يرى أن هذه القاعدة لا تطبق على أهل المدينة المنورة، حيث الزراع والعاملون في البساتين، والذين بإمكانهم ممارسة المهن الأخرى دون أن يبذلوا أكثر مشقة مما يبذلونه في الحقول والزراعة. لذا فإنه يعزو عدم توفر المهن في المدينة المنورة إلى نظرة العرب للحرف والعاملين بها، إذ غالباً ما يدعوهم كبرهم الذي يفوق حبهم للمال إلى أن يمنع الآباء الأبناء من تعلم أية حرفة^(١٢٩). وهو في هذا يصيب كيد الحقيقة، فهذه المسألة جزء من موروث العرب، فالبدو ينظرون إلى أهل الحرف نظرة احتقار وإلى من يقيم بينهم من أصحاب الحرف على أنهم فئة متدنية لا يرتبطون بهم، ولا يتزاجون منهم.

التجارة

أهل المدينة المنورة بعكس أهل مكة المكرمة ليس لهم كبير اهتمام بالتجارة^(١٣٠). فعلى الرغم من أن الاشتغال بالتجارة أمر شائع إلا أن القليل من يشتغل بها ظاهرياً^(١٣١). وأن التجارة القائمة لا تعدى توفير أغراض الاستهلاك المحلي، فهي تستورد أبسط الأشياء حتى المسامير وحذاء الخيل^(١٣٢). وغالبية البضائع المستوردة تعتمد المدينة المنورة في الحصول عليها من مصر عبر ينبع^(١٣٣).

وبعد سيطرة السعوديين على المدينة المنورة سنة (١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م) توقفت التجارة مع مصر^(١٣٤) وخاصة القمح، حيث صار يجلب من منطقة القصيم^(١٣٥).

لكن يوجد فئة من الأشخاص - وإن كانت قليلة - يعملون في مجال المبادلات التجارية الصغيرة،

١٢٨- رحلات، ص ٣٥١.

١٢٩- رحلات، ص ٣٥٠.

١٣٠- رحلات، ص ٣٢٨.

١٣١- رحلات، ص ٣٤٨.

١٣٢- رحلات، ص ٣٥١.

١٣٣- رحلات، ص ٣٤٥.

١٣٤- رحلات، ص ٣٤٨.

١٣٥- رحلات، ص ٣٤٧.

خاصة صفقات المواد الغذائية والمؤن، وغالبا ما كانت هذه الصفقات غير منتظمة، لأنها تعتمد على التعامل مع التجار العابرين، وما يصل من تجارة في موسم الحج^(١٣٦).

كان لمثل هذه التجاوزات آثار خطيرة على الحياة الاقتصادية العامة في المدينة المنورة، برزت من خلالها ظاهرة احتكار المؤن والمواد الغذائية خاصة القمح. فيقوم بعض ضعاف النفوس من التجار بتخزين تلك المواد وقت توفرها في مخازنهم لحين اشتداد الطلب عليها، مما يؤدي إلى مضاعفة أسعارها^(١٣٧).

والنوع الثاني من التجارة، تلك القائمة على التبادل التجاري مع البدو المجاورين للمدينة. يمد البدو المدينة المنورة بالمنتجات الحيوانية والفحم النباتي، مقابل أن يحصلوا على القمح والملابس^(١٣٨). وكانت الأسواق التجارية والمعاملات المالية - نظرياً - تحت إشراف المحتسب الذي لا يتمتع بأي امتيازات أو سلطات يستطيع من خلالها فرض سلطته ونفوذه^(١٣٨).

الزراعة والثروة الحيوانية

من أشهر المحاصيل الزراعية في المدينة المنورة: القمح والشعير. إلا أن المحصول لا يكفي لسد حاجة السكان. ومن الفواكه: العنب، والرمان، والخوخ، والموز، كذلك البطيخ والشمام الذي يزرع في حقول قباء. أما الخضروات، فمنها: السبانخ، اللفت، الكُرَّاث، البصل، الجزر، الفاصوليا. وغالب الخضراوات كانت تزرع بين أشجار النخيل داخل الأسوار^(١٣٩).

ولكن تعد زراعة النخيل الأشهر في المدينة المنورة شأن بقية بلاد الحجاز. وتوجد مزارع النخيل إما في حقول مسورة، حيث يتم ريها من الآبار المخصصة لهذه الغاية، أو تتواجد في السهول، وتعتمد في ريها على مياه الأمطار. وتمور النخل المروي أعلى ثمنا من تمور السهول. ويقارن بوركهارت حجم النخلة في المدينة مع النخلة في مصر، فيقول أن نخل المدينة أصغر حجما مما هو في مصر. والسبب كبير حجم نخيل مصر يعود إلى التربة الغنية ووفرة مياه النيل^(١٤٠).

١٣٦- رحلات، ص ٣٤٤.

١٣٧- رحلات، ص ٣٤٦.

١٣٨- رحلات، ص ٣٤٧.

١٣٩- رحلات، ص ٣٤٧.

١٤٠- رحلات، ص ٣٢٩.

ولأهمية التمر في حياة أهل المدينة، فإن الناس يترقبون موسم جنيه بشوق شديد، ويستقبلونه بابتهاج، ويعتبر نقص المحصول علامة حزن تظهر على وجوه أهل المدينة^(١٤١). "فالنخلة شيء عزيز على العربي المستقر، تماما كالجمل للبدوي"^(١٤٢).

يشير بوركهارت إلى أن في المدينة المنورة أكثر من مئة نوع من التمور^(١٤٣). أشهرها: الجبيلي (الجبلي). وهو أرخص الأنواع. وهذا النوع لا يوجد إلا في المدينة المنورة وينبع. ومن أنواع التمور أيضا الحلوة (الحلية)، وهو صغير الحجم، لا يزيد حجم الحبة منه عن حجم حبة التوت. سمي بالحلوة لفرط حلاوته. ومنها كذلك البرني، والصيحاني^(١٤٥).

ويزرع أهل المدينة المنورة بشكل كبير شجرة الأثل^(١٤٥)، التي تستخدم أخشابها في صناعة سروج الجمال وبعض الأدوات المنزلية^(١٤٦).

على الرغم من هذا الإنتاج الزراعي، إلا إنه لا يكفي المدينة المنورة سوى أربعة أشهر، مما تضطر المدينة المنورة إلى الاعتماد على الاستيراد من مصر بقية العام^(١٤٧).

أما الأغنام الموجودة فإنها لا تكفي لسد حاجات السكان من اللحم والبن ومشتقاته^(١٤٩). لذا اعتمدت في توفيرها على البدو المقيمين بالضواحي من خلال عمليات المبادلة بالقمح والملابس^(١٥٠).

وتعاني المدينة المنورة من نقص كبير في الثروة الحيوانية، فليس بها خيول إلا ما يملكه شيخ الحرم وقلة من حاشيته. كما تناقصت الجمال التي كان يفتتها المزارعون بكثرة، خوفا من مصادرتها من قبل الجيش التركي. واستعاض المزارعون عنها باستخدام الحمير^(١٥١).

١٤١- رحلات، ص ٣٢٩.

١٤٢- رحلات، ص ٣٣١.

١٤٣- رحلات، ص ٣٢٩.

١٤٤- حول التمور وأنواعها وأماكن زراعتها في الحجاز، انظر: الموسوعة العربية العالمية، ج ٧، ص ١٨٤-٦.

١٤٥- رحلات، ص ٣٣٠.

١٤٦- الأثل: شجرة تشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منه وأكبر وأجود. تسوى به الأقداح الصُفْر. ومنه اتخذ منبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٧٢.

١٤٧- رحلات، ص ٣٣١.

١٤٨- رحلات، ص ٣٤٧.

١٤٩- رحلات، ص ٣٥٥.

١٥٠- رحلات، ص ٣٤٧.

١٥١- رحلات، ص ٣٥٤-٥.

ملكية الأرض

١ - الملكية الخاصة، وهي معظم الحدائق والبساتين، يمتلكها أهل المدينة المنورة. يقوم على رعايتها وزراعتها فلاحون يطلق عليهم النخاولة.

٢ - أراضي الأوقاف الموقوفة على أوجه البر. غالبها موقوف على المسجد النبوي. لكن يشير بوركهارت إلى تحايل بعض الناس على شروط الوقف، من خلال استئجار تلك الأراضي لفترات طويلة، ثم القيام بتأجيرها في الباطن للمزارعين. وكانت هذه الطريقة المتتوية توفر لهم أرباحاً وفيرة، خاصة إذا علمنا أن هذا النوع من الأرض كان مُعفى من الضرائب الميرية في العهد العثماني^(١٥٢).

الضرائب

قبل دخول السعوديين إلى المدينة المنورة^(١٥٣) كانت شأن غيرها تخضع للقانون المالي العثماني، حيث تدفع الضرائب الميرية. لكن بعد السيطرة السعودية ألغيت جميع الضرائب السابقة، واستعيض عن ذلك بتطبيق النظام المالي وفق الشريعة الإسلامية، فرضت الزكاة. كما شهدت فترة السيطرة السعودية تطوراً في مجال تقدير قيمة الزكاة، فبعد أن كانت الضرائب العثمانية تقدر على ما تنتجه الأرض من القمح، استبدل ذلك بما تنتجه من التمور. وصارت تؤخذ عينا أو نقداً حسب سعر السوق^(١٥٤). هذه الإجراءات ولدت الكراهية في نفوس أهل المدينة تجاه السعوديين^(١٥٥).

خامساً: الوظائف الإدارية

يمكن تقسيم الوظائف الإدارية في المدينة المنورة إلى:

١ - **الوظائف العسكرية**، وعلى رأس هذه الوظائف الآغا^(١٥٦). وهو بمثابة القائد العسكري للمدينة،

١٥٢- رحلات، ص ٣٢٨.

١٥٣- كان ذلك عام ١٢٢٠هـ/١٧٥٨. (عهد الدولة السعودية الأولى).

١٥٤- رحلات، ص ٣٢٨.

١٥٥- هناك عامل آخر أشار إليه بوركهارت وراء كراهية أهل المدينة للحكم السعودي، ويتمثل بمنع الزوار من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت هذه الزيارات تدر عليهم دخلاً وفيراً. رحلات، ص ٣٢٨.

١٥٦- اختلف في أصلها، فقيل تركية من المصدر أعمق: ومعناه الكبير ومتقدم في السن. وقيل أنها من الكلمة الفارسية أفا: وتطلق في التركية على الرئيس والقائد وعلى الخدم الخصي الذي يسمح لهم بالدخول على الحريم. واستعمل عند العثمانيين لقباً بمنزلة قوا جاد أفتدي، ويلقب به كبير الخدم. وكان يلقب به كذلك رؤساء الإنكشارية ورؤساء الخدم السلطاني. دائرة المعارف الإسلامية، (مادة آغا) ج ٢، ص ٣٢٢. السلطان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي، ص ١٧، مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠، ص ١٧٢-٤. كما يطلق لقب آغا الحرم في مكة والمدينة على متولي الإشراف على الحرمين الشريفين. للمزيد، انظر: الأنصاري، تحفة المحبين، ص ٥٣-٤.

يتم تعيينه من قبل السلطان العثماني. وغالبا من تولاه من (الخصيان). يشير بوركهارت إلى أن تعيين مثل هؤلاء الخصيان هو بمثابة إبعاد ونفي عن العاصمة أكثر منه تشريف واعتراف بكفاءته. لكن بعد حالة الضعف والتراجع التي دبت بالدولة العثمانية، صار يتم اختيار الآغا من قبل الحامية العسكرية الموجودة في المدينة المنورة وليس من قبل اسطنبول (١٥٧).

وأثرت هذه التطورات السياسية على سلطة وصلاحيات آغا المدينة المنورة، فقد برزت قوى محلية أخذت تحد من صلاحياته، بل تنافسه السلطة والزعامة. وتتمثل هذه القوى بزعماء الأحياء، وخاصة الأشراف برئاسة زعيمهم الملقب: "شيخ السادات" (١٥٨).

كما برز من بين ثنايا الصراع والتنافس على السلطة فئة من كبار ضباط الحامية العسكرية، والذين أصبحت وظائفهم شبه وراثية يرثها الأبناء عن الآباء. وقد تضخمت هذه الفئة كثيراً وازدادت امتيازاتها (١٥٩).

٢ - **وظائف المسجد النبوي.** يرأسها شيخ الحرم "آغا الحرم". يكون اتصاله باسطنبول مباشرة، ويتمتع بنفس رتبة وامتيازات الباشاوات في المدن الأخرى (١٦٠). يذكر بوركهارت أن الذي كان يتولى منصب شيخ الحرم كان يشغل قبل ذلك في اسطنبول منصب "قسر أغاسي" وهي وظيفة تعني الإشراف على حريم السلطان. ورئيس الأغوات يسمى "شيخ الحرم". ويعتبر الشخص الرئيسي في المدينة المنورة. وتظهر أهميته من خلال هذا الموقف الذي شاهده بوركهارت فهو يتقدم على طوسون باشا (١٦٠)، بل أن طوسون كان حريصاً على إظهار تواضعه أمامه: "يقبل يد شيخ الحرم، وقد رأيتَه بنفسه يفعل ذلك في المسجد النبوي" (١٦٢). ولرئيس الأغوات مجلس يضاها مجلس الباشا (١٦٣).

ومنذ أن دخلت المدينة المنورة تحت حكم السعوديين (١٦٤) لم يسمحوا بقدوم شيخ أغوات آخر من

١٥٧- رحلات، ص ٢٥٩.

١٥٨- رحلات، ص ٣٦٠.

١٥٩- رحلات، ص ٣٦٠.

١٦٠- رحلات، ص ٣٦٠.

١٦١- قدم طوسون باشا إلى المدينة لمقابلة والده، لكن محمد علي باشا غادر المدينة قبل وصول بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ص ١٩١-٢.

١٦٢- رحلات، ص ٣٥٩.

١٦٣- رحلات، ص ٣١٩.

١٦٤- بعد أن تمت سيطرة آل سعود على مكة المكرمة عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٤) أعلنت المدينة المنورة ولاءها للملك سعود في السنة ذاتها. انظر: عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ط ٢، الرياض، مطبوعات وزارة المعارف، ج ١، ص ١٦٤-٥٠، بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ط ٢، ترجمة عبد الله العثيمين، (د. م.)، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م، ص ٩٠، عبد الله العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩، ج ١، ص ١٣٥.

اسطنبول، فقام أغوات المدينة المنورة باختيار واحد من بينهم. استمرت هذه المرحلة الانتقالية ثمان سنوات - أي حتى سنة (١٨١٢/هـ-١٢٢٧) (١٦٥) ، حيث أرسل من جديد رئيس أغوات من اسطنبول، لكنه في هذه المرحلة تقلصت صلاحياته ونفوذه " ليصبح مجرد ظل لما كان " (١٦٦).

ويتبع شيخ الحرم ما يقرب من خمسين من الأغوات (١٦٧)، يقوم بعضهم بحراسة المسجد (١٦٨)، والبعض الآخر مهمته غسل المسجد وإضاءة مصابيح (١٦٩). وكان هؤلاء الأغوات يتمتعون بأهمية بالغة واحترام من قبل الناس. ويقام الأغوات بحي خاص بهم شرق المسجد النبوي (١٧٠). وهؤلاء الأغوات يمارسون نفوذاً كبيراً في تسيير الأمور الداخلية للمدينة (١٧١). يكون مقر تواجدهم في مكان يعرف بالمائدة إلى الشمال من السياج المحيط بالروضة الشريفة، والذي يعقد فيه زعماء المدينة اجتماعاتهم (١٧٢).

أما بالنسبة لمصادر دخلهم، فتتكون من المعاشات التي ترسل لهم سنوياً من اسطنبول مع قافلة الحج، وكذلك من الهبات والتبرعات المقدمة للحرم. إضافة إلى الرسوم التي يتقاضونها من الزوار للروضة الشريفة (١٧٣).

وكان في جملة الموظفين في المسجد النبوي الفراشون. وغالبيتهم من سكان المدينة المنورة. مهمتهم نظافة المسجد وبسط السجاد. ويرى بوركهارت أن هؤلاء الفراشين لا يؤديون عملاً حقيقياً في هذه الخدمة، يستحقون مقابلها رواتب. لذا فإنه يشير إلى أن مثل هذه الوظائف كانت تشتري من شيخ

١٦٥- بعد أن نجح محمد علي باشا بالاستيلاء على الحجاز. بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ص ١٢١.

١٦٦- رحلات، ص ٣١٩.

١٦٧- يصف بوركهارت أولئك الأغوات بأنهم سود البشرة، يعترهم الضعف والهزال، كما أن ملامحهم خشنة تماماً، فلا تستطيع أن تميز منهم سوى العظم، وهم يخفون نحوهم بارتداء ملابس كثيرة. كان يجلب هؤلاء من أفريقيا وخاصة من الحبشة. أخذت أعدادهم تتناقص، بعد السيطرة السعودية على الحجاز، وذلك بسبب الوفاة، وعدم ورود شباب جديد. رحلات، ص ٢١٨، سنوك هورخونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة علي عودة الشيوخ، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩، ج ٢، ص ٢٣١.

١٦٨- كانت بداية خدمة هؤلاء الأغوات للحرمين في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي أرسل قتيانا من الأحابيش والصقالبة وكساهم بملابس بيضاء، وعلق عليه شارات خاصة بهم. الأنصاري، تحفة المحبين، ص ٥٤.

١٦٩- رحلات، ص ٢١٧.

١٧٠- رحلات، ص ٢١٨.

١٧١- رحلات، ص ٢١٨.

١٧٢- رحلات، ص ٢١٢.

١٧٣- رحلات، ص ٢١٨. يذكر بوركهارت أن من أراد من الزوار الدخول إلى الروضة الشريفة، فعليه أن يدفع ما يعادل ١٢-١٥ دولاراً لرئيس الأغوات.

الحرم، تضمن " للمشتري " راتباً سنوياً. وكانت مثل هذه الوظائف شبه وراثية. ويبلغ عدد الفراشين خمسمئة شخص (١٧٤).

ومما يؤكد رأي بوركهارت أن هؤلاء الفراشين يعملون كمزورين (أدلاء) للحجاج. أنهم مارسوا مهنة " الدعاء للغائب " . ومعنى ذلك أنهم خلال موسم الحج ومن خلال عملهم كمزورين، فإنهم يقيمون علاقات مع أولئك الحجاج. فما أن يعود الحجاج إلى بلادهم، فإن البعض وبناء على اتفاق (شرف) مع من تعرف عليه من المزورين بإرسال مبالغ مالية سنوية، مقابل الدعاء لهم أمام شباك الحجره النبوية.

يبدو أن مثل هذه الوظيفة صارت أمراً متعارفاً عليه، فقد كانت تجمع تلك الهبات وترسل مع كاتب الصرة، بعد أن توضع في مطروف يدون عليه اسم وعنوان المزور (١٧٥).

٣ - القاضي. وكان يرسل من العاصمة ليرأس القضاء في المدينة المنورة (١٧٦).

٤ - المحتسب (١٧٧) ومهمته مراقبة الأسواق والمبادلات التجارية (١٧٨).

انتقاده للأوضاع السلبية

هناك بعض الممارسات الخاطئة التي يمارسها البعض، مستغلين حرمة المكان وقلوب الزائرين. ففي كل بقعة يزورها الحاج يجد أناساً فرشوا مناديلهم لتلقي صدقات الزوار " التي تبدو كضرائب أكثر من كونها صدقات ". يقول بوركهارت إنه نتيجة لذلك قد كلفته الزيارة خمسة عشر قرشاً، كما أعطى المزورين عشرة قروش، مع أنه كان بإمكانه إتمام الزيارة بنصف المبلغ (١٧٨).

كما انتقد الممارسات التي يقوم بها فراشو الحرم الذين يستغلون موقعهم وعملهم داخله، فيعملون

١٧٤- رحلات، ص ٣١٩.

١٧٥- رحلات، ص ٣٢٠.

١٧٦- رحلات، ص ٣٦٠.

١٧٧- وظيفة المحتسب في الدولة الإسلامية: مراعاة أحكام الشرع، والإشراف على الأسواق، ومراقبة الأسعار والموازين. وكان من صلاحياته معاينة من يخالف الشرع، ويمنع التعدي على حدود الجيران، وارتفاع المباني بحيث يكشف أهل البيت الجيران. للمزيد، انظر: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠ هـ، ج ١، ص ٤٦٣-٤. ويظهر من وصف بوركهارت لوضيفة المحتسب أنه اطلع على كتب النظم الإسلامية، حيث يقول: يكون معينا لمراقبة بيع المؤن وملاحظة أن أسعارها لم تتجاوز حد الاعتدال، وتحديد أعلى سعر يمكن أن يبيع به تجار المواد التموينية. رحلات، ص ٢٤٧.

١٧٨- يشير بوركهارت أن المحتسب في المدينة ليس له تلك السلطة التي يتمتع بها نظيره في كل من جدة ومكة المكرمة. رحلات، ص ٣٤٧.

١٧٩- رحلات، ص ٣١٥.

كمزورين، " لذا يمكن وصف هؤلاء بأنهم - إلى درجة كبيرة طبقة عاطلة ". وهؤلاء ابتدعوا " مهنة الدعاء مقابل المال " مستغلين العلاقات التي ربطتهم بالحجاج^(١٨٠).

ووجه انتقادا شديدا إلى عزوف أهل المدينة المنورة عن ممارسة المهن، حيث تحولت المدينة المنورة نتيجة ذلك إلى مدينة استهلاكية، تعتمد في كل شيء على الاستيراد^(١٨١).

آراء مغالية أوردتها بوركهات

أورد بوركهات بعض الأفكار والآراء التي يظهر فيها طعن بمبادئ الإسلام وقواعد الحياة الاجتماعية الإسلامية. من هذه الآراء: النظرة السلبية للمرأة في بلاد المسلمين. يقول واصفاً معاملة المرأة: " ويُنظر إلى النساء في بلاد الشرق على أنهن مخلوقات أدنى درجة من الرجال. إذ ينكر بعض مفسري القرآن عليهن دخول الجنة، ولا يهتم الأزواج بمراعاتهن للشعائر الدينية، وعلى هذا فإن بعض الرجال لا يحبون أداء النساء للصلوات، لأن ذلك يرفعهن إلى درجة مساوية للأزواج أنفسهم، ويلاحظ أن المرأة تغدو زوجة سيئة إذا ما استطاعت أن تدعي مواظبتها على الصلوات " ^(١٨٢). لكننا نجد في موضع آخر يصف نساء المدينة المنورة بالحشمة والأدب " وتتصرف نسوة المدينة المنورة بحشمة كبيرة، وقد اشتهرن بين الناس بأنهن أكثر التزاماً بالآداب من نسوة مكة المكرمة وجدة " ^(١٨٣). فكيف يمكن التوفيق بين الرأيين ٥ . إضافة إلى ذلك فإنه يعترف أنه لم تتح له الفرصة الكافية للاختلاط بأهل المدينة المنورة^(١٨٤)، فكيف استطاع تكوين مثل هذا الرأي فالذي تحدث عنه يعتبر من أسرار البيوت التي كانت موصدة أمامه.

ويغالي أكثر من قبل عندما يُعدّ الخداع والمكائد من ضروريات حياة المسلم في الشرق. فالشرقي - بنظره - يفتقد للطموح كالمواطن الأوروبي. ويعزو قتل الطموح والنظر إلى المستقبل إلى: الحكومة التركية والعقيدة الإسلامية. " فصار الرياء والتظاهر بالتدين مظهرا من حياة المسلم " ^(١٨٥). لم يتوقف عند هذا الحد من التناول، بل يوجه شتائم صريحة اللفظ للمسلمين

١٨٠- رحلات، ص ٣٢٠.

١٨١- رحلات، ص ٣٥٢.

١٨٢- رحلات، ص ٢٢٢-٢.

١٨٣- رحلات، ص ٣٥٤.

١٨٤- رحلات، ص ٣٥٦.

١٨٥- رحلات، ص ٣٤٧.

فإن طول إقامتي بين الأتراك والسوريين والمصريين يجعلني أحكم عليهم بشكل عام أنهم تنقصهم الفضيلة والشرف والعدل.... ولا تتواجد الأمانة إلا بالقليل من المملّقين والمعتوهين" (١٨٦).

كما أن، بوركهارت لم يستوعب العادات العربية، ففسّر الكرم على أنه تصنع، ففي القصة التي رواها عن أحد مشايخ المدينة المنورة، الذي زاره وقدم له التمر وأظهر احترامه له. يقول: "ويعد أن وضعت دولاراً - عندما هممت بالانصراف - تحت السجادة التي كنت أجلس عليها... اصطحبني إلى بوابة البستان ورجاني أن أكرر الزيارة" (١٨٧). فهو يفسر إجحاح الشيخ على تكرار الزيارة طمعا بالمال. كما أنه اعتبر حرص مُزوّره على زيارته في الفندق أثناء مرضه بأن دافعه من وراء ذلك الاستيلاء على أمتعته حال وفاته (١٨٨). نقول أن ما قام به الشيخ والمزوّر هو طبيعة من طبائع العرب وموروثاتهم، التي لم يستطع بوركهارت "الأوروبي" استيعابها.

١٨٦ - رحلات، ص ٣٤٧.

١٨٧ - رحلات، ص ٣٥٤.

١٨٨ - رحلات، ص ٢٩٤.

الخاتمة

رغم التحفظات التي يبديها بعض الباحثين على بعض ما جاء في كتب الرحلات، فإنها تعدّ من المصادر المهمة والأساسية في تدوين التاريخ. تتبع هذه الأهمية من كونها وصفاً مباشراً لمظاهر الحياة العامة التي شاهدها الرحالة وأثارت اهتمامه. ليس هذا فحسب، فهذه الرحلات - مع عدم إهمال أغراضها - تحررت من سلطة الرقيب (السلطة السياسية) فامتازت في كثير من معلوماتها بالدقة والنقد وتصوير ما عجزت كتب التاريخ الأخرى عن تناوله.

أما الرحلة التي تناولتها الدراسة - فبالإضافة إلى ما ذكرناه من أسباب أهميتها، فإنها تعد وثيقة هامة لمرحلة مهمة من تاريخ الجزيرة العربية في العصر الحديث. فقد قدر لبوركهارت مشاهدة انحسار النفوذ السعودي عن الحجاز ومجيء قوات محمد علي وإعادتها للنفوذ العثماني. وقد سجل ملاحظاته عن طبيعة حكم السعوديين ومشاعر الناس نحوهم حاضرة وبادية سواء كانوا مؤيدين أو مناوئين، كما سجل ملاحظات عن طبيعة حكم محمد علي للحجاز. وقد ذكر بعض المعلومات التي لم يدونها أي من المصادر التاريخية القليلة لتلك الفترة.

لم يكتف بوركهارت بوصف ما شاهده، بل نظر إلى كل ما شاهده نظرة الناقد - وإن لم يوفق في بعض الحالات في تقديمه - معللاً أسباب بعض الظواهر والعوامل التي تكمن وراءها. فقد لاحظ تأثير الوافدين - الذين استقروا مع الزمن - على طبيعة الحياة الاجتماعية، فكل فئة حافظت على عادات بلادها في الطعام والشراب واللباس. لذلك، فليس لسكان المدينة المنورة زيّ خاص بهم يميزهم عن غيرهم.

عانت المدينة المنورة في فترة زيارة بوركهارت لها من عدم الاستقرار السياسي والأمني، مما جعلها تحت رحمة المحتكرين من التجار تارة، وغارات البدو تارة أخرى، والذي انعكس بدوره على مختلف مناحي الحياة العامة من عدم توفر الخدمات العامة، فليس بها سوى حمام واحد، كما عانت من ارتفاع الأسعار وعدم توفر المؤن الغذائية.

كان لاعتماد المدينة المنورة على الصرّة وما ترسله اسطنبول من معونات مالية سنوية آثاره السلبية حيث تحولت إلى "مدينة اتكالية" تعتمد في معاشها على الاستيراد. ليس هذا فحسب، بل اختفت منها الحرف والصناعات حتى البسيطة منها كصناعة الجرار الصغيرة المستعملة في الشرب.

المصادر والمراجع

- ١) الألباني، محمد ناصر الدين، أحكام الجنائز وبيدعها، الرياض: مكتبة المعارف (د ت)
- ٢) الأنصاري، عبد الرحمن، تحفة المحبين في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس (د. م)، ١٩٧٠.
- ٣) الأنصاري، عبد القدوس، آثار المدينة المنورة، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، (د ت).
- ٤) باقاسي، عائشة عبد الله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.
- ٥) بدول، روبن، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ترجمة عبد الله نصيف، الرياض: (د م)، ١٤٠٩هـ.
- ٦) بركات، مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠.
- ٧) ابن بشر، عثمان بن عبد الله، عنوان المجد في تاريخ نجد، ط٢، الرياض: مطبوعات وزارة المعارف، (د ت).
- ٨) البطريق، عبد الحميد، إبراهيم باشا في بلاد العرب، القسم الأول من كتاب ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، القاهرة، ١٩٤٨.
- ٩) بوركهارت، لويس، مواد لتاريخ الوهابيين، ط٢، ترجمة عبد الله العثيمين، (د. م)، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م.
- ١٠) بوركهارت، لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز الهلابي وعبد الرحمن الشيخ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣/١٩٩٢.
- ١١) بيرين، جاكلين، اكتشاف جزيرة الحرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، تعريب قدرى قلعجي، الرياض: منشورات دار الفاخرة، (د ت)
- ١٢) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق إبراهيم عطوة، القاهرة: مطبعة مصطفى الباب الحلبي، ١٩٦٥ م.
- ١٣) الحامد، نوره معجب، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (١٢٥٦-١٣٢٦هـ / ١٨٤٠-١٩٠٨)، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥.
- ١٤) الخياري، أحمد ياسين، تاريخ المدينة المنورة قديما وحديثا، الرياض: منشورات الأمانة العامة

- للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩.
- (١٥) دائرة المعارف الإسلامية، طهران، (د ت).
- (١٦) درويش، مديحه، تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين، جدة: دار الشروق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.
- (١٧) رضا، محمد، معجم متن اللغة، بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٥٩.
- (١٨) رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (د م)، (د ت).
- (١٩) الرومي، جلال الدين محمد بن خضر، التحفة اللطيفة في عمارة المسجد وسور المدينة (نشره حمد الجاسر مع رسائل أخرى تحت عنوان رسائل في تاريخ المدينة، الرياض، ١٩٧٢).
- (٢٠) السلطان، أحمد سعيد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩.
- (٢١) السمهودي، علي بن أحمد، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١ م.
- (٢٢) السنوسي، محمد بن عثمان، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٤٠١هـ/١٩٨١.
- (٢٣) الشريف، أحمد، مكة المكرمة والمدينة المنورة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٣.
- (٢٤) عبد الرحمن، عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، القاهرة، (د م)، ١٩٧٦.
- (٢٥) عبد الفني، محمد الياس، المساجد الأثرية في المدينة المنورة المنورة، ط١، المدينة المنورة: مطابع الرشيد، (د ت).
- (٢٦) العصامي، عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، القاهرة: المكتبة السلفية، (د ت).
- (٢٧) عطا الله، سمير، قافلة الحبر، الرياض: دار الساقى، ١٩٩٤.
- (٢٨) العقيقي، نجيب، المستشرقون، مصر: دار المعارف، ١٩٨٠.
- (٢٩) الفارس، أسعد، رحالة الغرب في ديار العرب، الكويت (د م)، ١٩٩٧.
- (٣٠) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد مرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٧.

(٣١) ----- ، المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، (د . ت) .

(٣٢) لمي، مصطفى، المدينة المنورة، تطورها العمراني، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١.

(٣٣) المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق: (د. م.)، ١٢٧٠هـ.

(٣٤) المعجم الوسيط، قام بإخراجية إبراهيم مصطفى وآخرون، استانبول، دار الدعوة، (د ت) .

(٣٥) مغربي، محمد علي، ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز، جدة: دار تهامة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.

(٣٦) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم المعروف لسان العرب، ط٢، اعتنى بتصحيحه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧.

(٣٧) ابن موسى، علي، رسالة في وصف المدينة المنورة، نشرها حمد الجاسر ضمن (رسائل في تاريخ المدينة المنورة) الرياض: دار اليمامة، ١٩٧٢.

(٣٨) الموسوعة العربية العالمية، ط٢، مؤسسة اعمار الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩/١٩٩٩.

(٣٩) نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

(٤٠) نواب، عواطف محمد، الرحلات المغربية والأندلسية مصدراً من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٣ هـ.

(٤١) العبيكان، طرفة، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط١، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦.

(٤٢) صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١ هـ.

(٤٣) العثيمين، عبد الله، تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩.

(٤٤) هورخونيه، سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة علي عودة الشيوخ، الرياض، داره الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩.

البحوث:

(٤٥) أحمدون، عبد الخالق، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله الدرعي، منشور ضمن بحوث الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات داره الملك عبد العزيز، ١٤٢٣هـ.

- (٤٦) زكريا، جمال، الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز، منشور ضمن بحوث دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض: جامعة الرياض (الملك سعود) ١٣٩٧ هـ.
- (٤٧) الشفعمي، محمد سعيد، كتاب بوركهارت كمصدر من تاريخي واقتصادي للدولة السعودية الأولى، منشور في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة، الرياض: جامعة الملك سعود (الرياض)، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- (٤٨) الشيباني، محمد، أهداف الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية، "الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠.
- (٤٩) العبد الجبار، عبد الله، كتابات الرحالة الغربيين مصدرا لتاريخ شبه الجزيرة العربية، مجلة الدارة، العدد ١، سنة ٢٧، ١٤٢٢ هـ.
- (٥٠) السرياني محمود، البيوتقة المكية وأثرها في صهر السكان، مجلة الدارة، عدد ٤، مجلد ٣٢، ١٤٢٦ هـ.
- (٥١) الفارس، أسعد، الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، أهدافهم وغاياتهم، منشور ضمن "الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠.
- (٥٢) المطوع، عبد الله، الرحالة الغربيون ورواياتهم عن الإحساء، ضمن بحوث الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠.

المراجع باللغة الإنجليزية:

- (٥٣) Bidwell Robin. Travels In Arabia. London. 1994
- (٥٤) John Lewes. Burckhardt's Sojourn in makkah and Al-madinah in 1814- Rolf A. Stucky 1815
- ضمن بحوث الرحلات إلى الجزيرة العربية، الرياض: منشورات دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٢١ هـ / ٢٠٠١.